د–ألفة يوسف

أحلى كلام...

قراءة ذاتيّة (جدّا) في الشّتائم التّونسيّة

الفايسبوكيّة

2017-2011

تونس 2018

الكتاب: أحلى كلام
المؤلّف: ألفة يوسف
البريد الالكتروني:
Olfa.youssef@gmail.com
تاريخ الصّدور: الثلاثية الأولى بإذن الله 2018
الطّبعة الأولى

تصميم الغلاف بإذن الله: خير الدّين بن حليمة

إلى أصدقائي الفايسبوكيّين...المتابعين
والنّاقدين والشّاتمين والمساندين...
حبّا وعرفانا...

تقديمبسم الله الرّحمان الرّحيم

بين 2011 و2017 كتبتُ كثيرا على "الفايسبوك" بما هو وسيلة تواصل اجتماعيّ تبلغ عددا كبيرا من المتابعين. كتبتُ أشياء مختلفة، تعاليق سياسيّة وفنّية ورياضيّة، تحاليل سطحيّة أحيانا وترنو إلى العمق أحيانا أخرى، شاركتُ جمهور "الفايسبوكيّين" مواقف شخصيّة ونوادر وأمثالا إلخ...

طلب منّي بعض أصدقائي نشرها باعتبارها دالّة، ربّما، على فترة معيّنة من تاريخ البلاد يمتزج فيها ما يسمّى "ذاتيّا" بما يسمّى "موضوعيّا". ولكن ما كان لنشر "تدويناتي" في نفسي من صدى. وفي مقابل ذلك، أغراني منذ 2011 جمع الشّتائم الّتي كانت تُكال لي ولكثير من النّساء والكتّاب والمدوّنين المتصدّين لحركة "النّهضة" وأخونة المجتمع التّونسيّ آنذاك. كنت أكدّس الشّتائم عبر تقنية القصّ واللّصق قبل أن تعلّمني ابنتي تقنية: "التقاط صورة الشّاشة".

حول الشّتائم، كان يبلغني صنفان من الرّسائل متناقضان وإن قالا شيئا واحدا. الصّنف الأوّل من "مناصرين" تفيد ما معناه: "كيف تصبرين على هذا القدر من الشّتائم؟"، ونموذجها التّعليق التّالي:

"رّبي يصبرك على المستويات المنحطة والشتم والسب"

والصّنف الثّاني من شاتمين تفيد ما معناه: ألا تملّين من الشّتائم؟ ونموذجها التّعليق التّالي:

« ye5i mafaditech melba5es »

(ياخي ما فدّيتش من البخس)

صنفا الرّسائل كلاهما كان يتعجّب من صبري على الشّتيمة، والحقّ أنّ الشّتيمة ما كانت تزعجني البتّة. ليس فقط لأنّي، وبعد تجارب حياتيّة عميقة، نفذتُ إلى أنّ اللّغة شتيمةً كانت أم مدحا أم غزلا لا علاقة لها بالموضوع المشتوم، وأنّها ليست إلاّ تعبير الذّات الموتورة عن رؤيتها للعالم، وإنّما ما كانت تزعجني الشّتيمة لأنّي كنت أشعر تجاه الشّاتمين بعطف خاصّ لم أدرك كنهه حينها. كنت أحسّ أنّ ذواتهم لا يمكن أن تُلخّص في الشّتيمة التي يلقونها في وجهي مختفين وراء شاشة الحواسيب والهواتف الذّكيّة والتابلات. ولئن اعتمدتُ بعد ذلك مصطلح "الشّاتمين" للإحالة عليهم، فليس تلخيصا لذواتهم في هذه الصّفة، لكن لمجرّد حاجة اللغة إلى دوالّ تمييزيّة تُسمّي. فلهم منّي كلّ الاعتذار.

كنت أجمع الشّتائم دونما تخطيط واع لما قد أفعله بها. وبعد سنوات من جمعي إيّاها، وفي عمق مرحلة انغمستُ فيها في مشاغل فكريّة ونفسيّة وروحانيّة ما كنت أرى سواها...في عمق

تلك المرحلة وجدتُ نفسي يوما أشعل حاسوبي وأقرأ وثيقة كنت قد وسمتها ب"مدوّنة الشّتائم". ومن الغد، وجدتُ نفسي، وأنا أحتسي قهوة الصّباح، في واحد من صالونات الشّاي المعروفة بسوسة، أشرع في كتابة قسم: "يا قحبة". ومن يومها إلى تاريخ إيداع مخطوط النّشر سكنني هذا الكتاب. تعاملت معه بِكُرْه في أحيان كثيرة. كان يبدو لي تافها سطحيّا ساذجا، ولكنّ كلّ النّعوت الّتي أطلقها "أناي" المريض على الكتاب عساي أتركه، كانت تتبخّر كلّما كانت أصابعي تنقر كلماته على بياض ورق الحاسوب الوهميّ. آلمتني يداي في تلك الفترة وكنت أجد عسرا في الكتابة، واضطررت لعيادة طبيب فالشّروعِ في حصص طويلة من العلاج الطّبيعيّ، لكن، حتّى جسدي، رغم كلّ محاولاته المبذولة، لم ينجح في إعاقتي عن إتمام هذا المؤلَّف.

ربّما هذا الكتاب هو أوّل ثمار طريق التّسليم الّذي أسلكه. فمن قال إنّه عليّ "أنا" أن أقرّر ما يُكتب ويُنشر وما لا يُكتب ولا يُنشر؟ من قال إنّه عليّ أن أؤلّف كتبا أكاديميّة أو مقالات شبه أكاديميّة؟ من قال إنّه عليّ أن أعرف لمن يتوجّه هذا الكتاب وماذا سيُفعل به؟

أطعتُ صوت الأعماق فيّ. فكان هذا المؤلَّف قراءة "ذاتيّة" في الشّتائم التي تلقّيتها من 2011 إلى 2017. لا أعدك صديقي

القارئ بشيء إلاّ بأمانة في نقل الشّتائم كما هي بأخطائها وأساليب كتابتها ولغتها الّتي قد تصدم البعض[1]. لكن هل الفرار من الحقيقة، وإن تكن "صادمة" يلغيها؟

أزعم أنّ الكتاب، في بعض وجوهه، مرآة لبعض خصائص الشّخصيّة الجماعيّة التّونسيّة من خلال الشّتيمة. وهو في الآن نفسه مرآة للكاتبة بتركيبتها الذّهنيّة والنّفسيّة. والأمران في واقع الأمر شيء واحد...أليس الكون كلّه مرآة لواحد لا يُرى؟ ولكن تلك قضيّة أخرى كما كان يقول المرحوم أستاذنا المنجي الشّملي[2].

ألفة يوسف

[1] اخترتُ أن أعيد كتابة الشّتائم العربيّة الواردة بالحروف اللاّتينيّة باعتماد الحروف العربيّة لوعيي أنّ بعض القرّاء لا سيّما من هم من جيلي لا يتقنون طريقة الكتابة الجديدة هذه.

[2] الأستاذ المنجي الشّملي (–2016)، من جيل مؤسّسي الجامعة التّونسيّة وبناتها، أستاذ لغة وآداب عربيّة كانت دروسه تتميّز بالطّرافة. وكانت استطراداته متواترة، كثيرا ما يختمها بعبارة: "وتلك قضيّة أخرى".

يا قحبة

بين القحبة والملهط والعاهرة والفاجرة

"القحبة"، وما أدراك ما القحبة. أكثر شتيمة تتعرّض لها المرأة في بلادي هو نعتها بالقحبة: في خصام في الشّارع، في خلاف بين سائقي سيّارات، في ساعة غضب زوج أو أب، في توصيف لها من قبل ذكور جالسين في مقهى. لا يهمّ السّياق، لا زمانا ولا مكانا، المهمّ أنّ جلّ النّساء قحاب. "جلّ" هذه طبعا ليست إلاّ مجرّد تنسيب تقصى بموجبه من الوصف بالقحبة أمُّ كلّ ذكر شاتم وأختُه وجدّتُه وعمّتُه وخالته وسائر نساء العائلة المحترمات، الأحياء منهنّ والأموات.

وليس من الغريب والحال تلك أن تكون أكبر شتيمة تعرّضتُ لها على الأنترنت هي نعتي بال"قحبة"، وذلك بتلوينات وأشكال مختلفة. والقحبةُ في معناها المرجعيّ اللّغويّ هي المرأة التي تبيع جسدها بالمال، ولكنّ المعنى المرجعيّ قلّما يُعتمد في الشّتائم، وتُعتمد المعاني الحافة أو الالتزاميّة أساسا[3].

[3] المعنى المرجعيّ هو معنى الكلمة المعجميّ، أمّا المعنى الالتزاميّ أو الحاف حسب التّرجمات لconnotatif، فهو يحيل على الدّلالات الثّقافيّة والرّمزيّة المتحوّلة لكلمة. فكلمة: أحمر مثلا تحيل مرجعيّا على اللّون، ولكنّها تحيل التزاميّا على الخطر مثلا.

بعض المعلّقين لا يستعمل كلمة قحبة كاملة، وإنّما يكتب القاف متلوّة بنقاط تتابع. ولا أفهم لماذا يفعل الشّاتم ذلك وهو الّذي فكّر في الكلمة ورماني بها:

« ya k...... »(يا ق...)

لعلّ الشّاتم استحى من أن يقرأ التّعليقَ أحدُ معارفه، أو لعلّه أراد أن يثبت سموّ أخلاقه الّذي يبيح له أن ينعت امرأة بالقحبة ولكنّه يمنعه من كتابة الكلمة كاملة، وكأنّه سيقول لو سُئل في الأمر: وهل أنا مسؤول عن تأويلك؟ لعلّي أعني يا قبيحة أو يا قميئة أو يا "قردة" مثلا[4].

ونادرا ما يعبَّر عن القحبة في التّعاليق بألفاظ مشابهة مثل "ملهط"[5] أو "عاهرة". ومن يستعمل كلمة "ملهط" يضفي شحنة استهجانيّة أكبر على الشّتيمة، ذلك أنّ القحبة هي بشكل مّا محترفة، ولعلّها مضطرّة للاشتغال "قحبة". ورغم أنّ "الحرّة تجوع ولا تأكل بثدييها" فإنّ للظّروف أحيانا إكراهاتها.

أمّا الملهط فهي هاوية "قحب"، وكأنّ في عملها هذا نوعا من التّرف الّذي يجعلها عرضة لاتّهام أخطر. فأنت قد تتعاطف مع

---

[4]"يا قردة" من العبارات المعتمدة في الشتم، وتفيد عادة سخرية من خِلْقة المشتوم.

[5]كلمة تونسيّة عامّية تفيد استهجانا المرأة الّتي تقايض "الخدمة الجنسيّة" بالمال دون أن تكون محترفة بالمعنى الفعليّ للكلمة.

"جان فالجان" الّذي سرق رغيفا بسبب الجوع[6]، لكن يعسر أن تتعاطف مع رجل أعمال هرّب مليارات الدّولارات. كذا الفرقُ بين القحبة والملهط...الثّانية لا عذر لها. ولذلك يقول أحدهم:

« bellehi bari nayki hal malhet mta3 zebi yn3an zabour ommek! »

(بالله برّي نيّكي ها الملهط متاع زبّي ينعن زبّور أمّك)

إنّ القحبة تنيك بطبعها أمّا الملهط فتفعل ذلك أحيانا. ولذلك لم أجد في التّعاليق على كثرتها عبارة: "برّ نيّك يا قحبة"، ربّما لأنّ الجماعة لا يحبّون الأمر بما هو من تحصيل الحاصل.

أمّا من يستعملون عبارة "فاجرة" و"عاهرة" فيندرجون في مستوى لغويّ أكثر أناقة. وكأنّه لا يليق بهم مهما يكن المشتوم نذلا أن ينزلوا إلى مستواه. كلمة "قحبة" نتركها للرّعاع أو للاستعمالات الحميمة، ولكن للشّتم أمام أعين الملايين على الشّبكات الاجتماعيّة أصول. فلنستعمل كلمة "فاجرة":

« Rabi a9wa ménnék ya fééééééjra »

(ربيّ أقوى منّك يا فاجرة)

«Ya fejra»(يا فاجرة)

---

[6]جان فالجان (Jean Valjean) شخصيّة شهيرة في كتاب: "البؤساء" (les misérables) لفيكتور هيغو (Victor Hugo)، أودع السّجن لمجرّد سرقته رغيفا من الخبز بسبب الجوع الشّديد.

أو لتكن كلمة "عاهرة" بديلا، بأصلها العربيّ القحّ، وبما يتبعها من تعبير باللّغة الفصحى، ولِمَ لا ببعض السّجع والتّميّز اللّسانيّ:

"***ما زلت يا العاهرة وجماعتك تنبجون.اف لك يا الفة الخراب والكلاب***"

وهكذا يكون التّعليق بصيغة لا تعمد إلى عنف الدّالّ وإن حافظت على عنف المدلول.

لكن، ما هو هذا المدلول؟ ما معنى أن تكون المرأة قحبة في سجلّ الشّتم؟

خصائص القحب

لكلّ مرء صفات متعدّدة، لكن يبدو أنّ القحب صفة تأخذ حيزا هامّا، فتكون كبيرة إقرارا:

« ***inti 9a7ba kbira*** »(أنت قحبة كبيرة)

وبين الكبر والكثرة شعرة معاوية حيث يؤكّد تعليق آخر:

"***تستطيعين إضافة الكثير لدار عبد الله***"[7]

وقد يقاس كبر القحب، أو كثرته،باعتماد "كم" التّعجبّ، فتقرأ:

"***كم انت قحبة يا الفة***"

[7]دار عبد الله القش مبغى قديم معروف في أحد أزقّة المدينة العتيقة بتونس.

ويمكن طبعا، إذ تقرأ هذا، أن تتصوّر الكاتب وقد اندلق فكّه السّفليّ على رقبته دهشةً من كمّ القحب بما لم يخطر على فكر بشر ولا دار بذهن كائن حيّ.

ويتأكّد الاندهاش إذا ما علمنا أنّنا بإزاء "أكبر قحبة في تاريخ تونس". والأمرلا يُصدّق حتّى إنّ صاحب التّعليق يضطرّ إلى أن يقسم بالله عسى يجد قوله صدى لدى القرّاء:

« walah inti akbar k......a fi tarikh touness »

(والله انت أكبر ق..... في تاريخ تونس)

ولا يكون القحب كبيرا فقط، فالكبير قد يصغر، والحجم متحوّل سياقا. ولكن المصيبة أنّ القحب قد يكون أحيانا سمة جوهريّة في صاحبته لا تنفكّ عنه. القحب يا سادة قد يتجاوز معياري الكمّ والكثرة ليصبح رديف حياة. وإذا كان فقهاء المسلمين يسمحون باستتابة المرتدّ، بل يدعون إلى ذلك، فإنّ الفايسبوكيّين التّونسيّين يرون أن لا توبة عن القحب باعتباره يكون من المهد إلى اللّحد:

«enti 3echt 9a7ba donc sakker fommek pour jamais w mout 9a7ba»

(أنت عشت قحبة، إذن أغلقي فاك إلى الأبد، وموتي قحبة)

ويصل الأمر بالبعض إلى الإقرار بالعجز التّام عن معالجة القحب:

«zéyidm3A l97ab chnou béch ta3mil»

(زايد مع القحاب، آشنوّ باش تعمل)

فكأنّ القحب "خصيصة جينيّة لا يمكن الفكاك منها. وكما أنّ المثل التّونسيّ يقول: "كبّ الطنجرة على فمها تطلع الطّفلة لأمّها"، فإنّ القحب هو أيضا موروث، وإذا كانت البنت "قحبة" فلا شكّ أنّ أمّها لا تختلف عنها:

«ommik el kahba bech tadfa3 ya olfa»

(أمّك القحبة باش تدفع يا ألفة)[8]

وتؤكّد بعض الشّتائم علاقة النّسب الوثيقة بين القحبة الأمّ والقحبة البنت:

«nik ommek lmibouna ya olfa ya 9a7ba ya bent el 9a7ba»

(نيك أمّك الميبونة يا ألفة يا قحبة يا بنت القحبة)[9]

لكن ما هو هذا القحب الكبير الوراثيّ الدّائم الّذي لا يُستتاب عنه؟ ما ماهية هذا القحب الّذي يسم حاملته من الأبد إلى الأزل؟

يعسر أن تنتظر من الشّاتمين تحديد ماهية الشّتائم أو التّفكير فيها، ولكن رغم أنّ مضمون "القحب" وتحديده أمر يكاد يكون

---

[8]جاء هذا التّعليق ردّا على تدوينة تعرض لدفع الثّمن.

[9]تجدر الإشارة هنا إلى أنّ "بنت القحبة" لها، في العامّيّة التّونسيّة، معنى آخر سوى المعنى الاستهجانيّ الوارد في هذا السّياق. فقد تفيد أيضا معنى الخبث والدّهاء.

غائبا، فكأنّ هناك اتّفاقا جماعيّا ضمنيّا بين الشّاتمين على ماهية "القحب" حتّى إنّ البعض يكتشفه ويستطيع تسميته بمجرّد ظهوره. وهذا شأن القائل:

«Walla 3raftha qahba melli bdet essecution»(sic)

(والله عرفتها قحبة ماللي بدأ النّقاش)

يا امّسّخة/ يا نجسة

القحب المتّفق عليه هو طبعا أمر سلبيّ وإلاّ لما دخل حيّز الشّتائم، وهو يتّصل بالوسخ مرّات إمّا في إقرار بسيط مباشر:

"يا امّسخة"

أو في حصر لذاتي في أنّي "قحبة متّسخة":

«T es qu'une sale pute»(لست سوى قحبة متّسخة)

وقد يساند الوصف "خامجة" وصف المتّسخة، ولعلّه يزيده تأكيدا. فكأنّ "الخمج" هو قمّة الوسخ :

«Ya 5amja»(يا خامجة)

والشّاتم لا يوضّح لنا هل كلّ العاهرات متّسخات أم هل يوجد إمكان لتصوّر عاهرة غير متّسخة، لكنّنا مبدئيّا نتصوّر أنّ الوسخ هنا لا يحيل على معناه المادّي، فالمعلّقون لا يمكنهم معرفة مدى نظافة الجسم، اللهمّ إذا كانت حواسيبهم مزوّدة بلاقطات شمّ مخصوصة. ويبدو أنّ الوسخ المقصود هنا

أخلاقيّ على أساس أنّ القحبة تعدّد الشّركاء. وقد يؤكّد "الخمج" ما أسلفناه من عدم استتابة القحبة ذلك أنّ "الخمج" يحيل أصلا على الثّمار أو الغلال أو الخضر الّتي ينتهي تاريخ صلاحيتها بأن تفسد وتغدو غير صالحة للاستهلاك.

وقد بيّنت تعاليق أخرى أنّ بعض الوسخ و"الخمج" المقصوديْن لا يطال القحاب فقط وإنّما قد يطال بالقوّة النّساء جميعهنّ. وفي هذه الحال، يظهر لفظ جديد معبّر ،وهولفظ "النّجاسة" الّذي تكرّر مرّات. وعبارة النّجاسة هي من حقل دينيّ، فالمسيحيّون يعتبرون النّجاسة جوهرا في المرأة، ولا تبتعد القراءة الحرفيّة للإسلام عن النّظرة ذاتها إذ ملامسة النّساء مثلا تنقض الوضوء وتضيع الطّهارة.

هذه النّجاسة الجوهريّة أزعجت أحد المعلّقين الّذي لم يجد من يشكو إليه همّ الزّمان إلاّ الله تعالى:

"يا رب راهو الحوار معاها نجاسة راهي امسخة ابعدوها"

طبعا نسي هذا الشّخص أنّه هو من اختار التّحاور معي. وربّما تذكّر أنّ الحوار مع أمثالي نجاسة لا فحسب لأنّي امرأة/ قحبة والنّجاسة من سماتي الأساسيّة، ولكن لأنّ نجاستي بالقوّة تحوّلت إلى نجاسة بالفعل إذ جرأت على الحديث في الشّأن

العامّ. ومن هنا أصبحت نجاستي مضاعفة، وهذا ما حمل بعضهم على إنشاء صفحة فايسبوك اسمها:

"ألفة يوسف المرأة الّتي تحيض من فمها"

لا يكفي أنّني امرأة تحيض بيولوجيّا بما يهبني مكانة دنيا أصليّة، حتّى أتجاوز ذلك لأعرض نجاستي على الملإ من خلال الكلام. واللّطيف أنّ عمل الفوتوشوب على الصّورة الخاصّة بالصّفحة معبّر جدّا إذ نرى قطرات من الدّماء تخرج من فمي فتجعلني شبيهة بدراكولا مصّاص الدّماء مع فارق جوهريّ، وهو أنّ دراكولا يمتصّ الدّماء، فلا تبقى منها إلاّ بعض آثار على شفتيه. أمّا الصّورة فتعرض الدّماء كما هي شاهدا على القذارة والنّجاسة:

"صدقوني هذه الحقيرة تحيض من فمها"

القحبة المفعول بها

رغم أنّ تعريف "القحب" يبدو من تحصيل الحاصل لدى الشّاتمين، فإنّنا نجد البعض يحاول أحيانا تحديدهذا "القحب" المعروف والمجمع عليه، فيقول مثلا:

«ye 5ra…3yiti thezi fi se9ik l ben 3li tawa welit 3andek fom t7el fih ye 9a7ba»

(يا خرى... عييتي تهزّي في ساقيك لبن علي، وتوّ ولّى عندك فم تحلّ فيه يا قحبة)

يتمثّل القحب هنا في خضوع سياسيّ يتصوّره الشّاتم، ويجسّمه في "خضوع" جنسيّ. وهو ما يتمثّل في فعل "هزّان السّاقين". فتصوّر هذا الشّاتم يندرج في إطار التّصوّر الاجتماعيّ الّذي يعتبر المنفعل جنسيًا في مرتبة سلبيّة[10].

وتتأكّد هذه القراءة الّتي تربط "الانفعال الجنسيّ" بالقحب من خلال قول أحدهم:

"***أنت قحبة شيعية ناكرة ونكرة على الدين الإسلامي...حتى انكي مشجعة على زواج المتعة...فهل تقبلين ان اتمتع بكي لنصف ساعة***" (هكذا)

سنعود إلى الشتائم ذات المرجعيّة الدّينيّة، لكن أقف هنا على عبارة "أتمتّع بك"، فإذا كان هذا الشّخص يشتمك أي يراك من منظور سلبيّ، فلماذا يريد أن يقيم معك علاقة جنسيّة؟

يكمن الجواب في حرف الجرّ، يكمن الجواب في الفرق بين عبارة: "أتمتّع معك" الممكنة، وعبارة: "أتمتّع بك" التي اعتمدها الشّاتم. القحبة/المرأة ليست ذاتا ولكنّها موضوع للمتعة الجنسيّة. وأن تكون موضوعا للمتعة الجنسيّة، أن تكون ممّن يُتمتّع "به"

---

[10]وضّحنا هذه المسألة في: كتابنا "وليس الذّكر كالأنثى"، تونس 2014، صص64-67.

هو أمر يخرجك من حيّز الذّات إلى حيّز الموضوع المستعمل والمستهجن في آن.أن تكون ممّن يُتمتّع به هو ضرب من ضروب التّحقير يتلاءم مع صفة القحبة شتما.

القحبة الفاعلة/ سلطان الأنثويّ

على أنّ القحبة ليست فقط تلك التي تتميّز بالانفعال الجنسيّ، فهذا ممّا يعدّ خصيصة للنساء جميعهنّ. و"القحب"، رغم أنّه معمّم بالقوّة على كلّ النّساء، فإنّه لا يُسند بالفعل إلاّ إلى بعضهنّ. فهل يكون ذلك بسبب مقايضة القحبة الفعل الجنسيّ بالمال؟ وهو المعنى الأصليّ الأوّل للقحبة قبل أن يكون شتيمة؟

كان يمكن أن نقرأ ذلك كذلك لو لم يكن الزّواج نفسه في المخيال الاجتماعيّ قائما على مقايضة الجنس بالمال، وهذا شائع في التمثّل التراثي الّذي يقرّ أنّ الزّواج هو استحلال الرجل لفرج المرأة مقابل مال يدفعه لها، بل إنّ هذا التّصوّر متواصل في المخيال الحديث حيث تطلب المرأة من الخطيب المصوغ والحلي وهدايا المواسم إلخ، وبعضُ هذه الهدايا تسمّى "رشما" أي وسما للمرأة. فمثلما توسم الدّابّة الّتي يمتلكها المشتري بوشم مادّي على جسدها، توسم المرأة البضاعة قبل الزّواج بموجب هدايا ومقابل مادّي يثبت ملكيّتها في شبه وعد

بـالبيع إلـى أن تتجسّم الصّـفقة التّجاريّـة بـالبيع، أعنـي الـزّواج الفعلـيّ. إنّ مقايضــة المـرأة الجـنس بالمـال ليسـت إذن أمـرا مستهجنا في حدّ ذاته. فلماذا يعدّ القحب شتيمة وعارا؟

للقحبة سمةٌ جوهريّةٌ. هذه السّمة هي أنّ القحبة لا تلتزم بـدور المنفعل الجنسيّ المفروض على المرأة. إنّ القحبة تثور، بشكل من الأشكال، على هذا الدّور .صحيح أنّ المخيال الجمعيّ يراها على مستوى الممارسة الجنسيّة منفعلة بما هي امرأة، ولكنّ نفس هذا المخيال يراها امرأة فاعلة باعتبارها تُعدّد الشّركاء الرّجال، بـل تختـار هـذا التّعديـد[11]. القحبـة إذن قـد تكـون امـرأة منفعلـة جنسيّا لكنّها ليست "حُرْمـة"[12]، هـي ليسـت "فرجـا" يمتلكـه رجل واحد، وإنّما فرجا متاحا لكلّ من يدفع. وهي بذلك "تحطّم" الدّالّة القضيبيّة[13] القائمة على أن تكون المرأة لرجل واحد.

إنّ القحبة هي بشكل مّا امرأة متحرّرة من الأعراف الاجتماعيّة، لذلك يرى البعض أنّ علاقة التّحرّر بالقحب هي علاقة سبب بنتيجة:

---

[11] القحبة مشتقّة من جذر (ق،ح،ب)، وفعل "قحب" معناه سعل. ومعنى قحبة في أصله اللّغويّ يحيل على المرأة الّتي تدلّ الرّجال على مكانها بسعالها. فهي بشكل من الأشكال فاعلة.

[12] لفظ "الحرمة" متّصل بتحريم نكاح المتزوّجة من أيّ رجل آخر سوى زوجها.

[13] راجع مفهوم الدّالّة القضيبية لدى لاكان.انظر:

J.-D-Nasio : *Enseignement de sept concepts cruciaux de la psychanalyse*, Paris, Editions Rivages 1988, p-49.

«Hararnehim wallew khab»(حرّرناهم ولّاو قحاب)

ثمّ إنّ القحبة من جهة أخرى فاعلة لأنّها تحكم الرّجل. فإذا علمنا أنّ المخيال الجمعيّ يسمح للرّجل بممارسات جنسيّة مع القحبة لا يُسمح بها مع الزّوجة، فهمنا أنّ الرّجل يكون "مرتهنا" للقحبة لأنّها الوحيدة التي تتيح له فضاء تنويع المتعة وإذكائها. وهذا ما يعطيها سلطانا قويّا على الرّجل.

هذا السّلطان هو ما جسّمه التّعليق التّالي بأسلوب طريف انزعج صاحبه من كثرة التعاليق والإعجاب على الصّفحة، فقال:

«ya3tiha 3asba erjoulia limazelet fi tounes erajel ychem rihet 9ahba y9adselha azebi»

(يعطيها عصبة الرّجوليّة الّي ما زالت في تونس الرجل يشمّ ريحة قحبة يقدّس لها آ زبّي)

سلطان الأنثويّ على الذّكوريّ هو مشكل كبير. وليس من الصّدفة أن يختم المعلّق جملته بالتّذكير بأنّ له عضوا تناسليّا ذكوريّا. ولا يمكن أن نعرف إذا كان يذكّر نفسه بذلك أو يذكّر الآخرين حتّى يتأكّدوا أنّه رجل "حقيقيّ" وليس مثل بعض "الرّجال" ممّن للقحبة عليهم سلطان.

إنّ سلطان "القحبة" يجعلها منفعلة ظاهريّا وفاعلة جوهريّا.وفي استعمال فعل "يقدّس" دلالة رمزيّة عميقة في التّعبير عن العلاقة العموديّة بين الرّجل والقحبة تحتلّ القحبة أعلاها طبعا.

سكّر فمّك يا قحبة

ليس عيب القحبة الأساسيّ أنّها تحطّم الدّالّة القضيبيّة وتحكم الرّجل، وإنّما عيبها الأكبر الّذي يبيح إشباعها سبّا وشتما هو أنّها تتكلّم، عيبها الأكبر هو أنّها "تحيض من فمها". فالمفروض أصلا أنّ المرأة تصمت ولا تفتح فمها[14] فما بالك إذا كانت قحبة؟ ما بالك إذا كانت امرأة مستهجنة منبوذة؟

إنّ على المرأة/ القحبة أن تصمت، وأمرها بالصّمت يكون عنيفا عنف خرقها لقانون إغلاق فيها. ومن المندوب تذكيرها عند كلّ أمر بالصّمت أنّها قحبة أوفاجرة:

«Ta guele sale pute» (sic)

(أغلقي فاك أيّتها القحبة المتّسخة)

«kan sakkerti din om ak lfom 5ir ya fejra »

(كان سكّرت دين أم ها كالفم خير يا فاجرة)

إنّه من نكد الدّهر على الحرّ أن تفتح القحاب أفواههنّ ليتكلّمن:

«bellahi ro7 nik omek inti wa7da 9a7ba kifek jaya t7el fi famek tfouu 3lik»

---

[14] العلاقة بين المرأة والصّمت وثيقة جدا. انظر: مقال العادل خضر: "صمت النّساء" ضمن "يحكى أنّ...مقالات في التّأويل القصصيّ"، تونس 2006 دار المعرفة للنّشر، صص103-115.

(بالله روح نيك أمّك إنت واحدة قحبة كيفك جاية تحلّ في فمك تفووه عليك)

وإنّه من نكد للدّهر أكبر أن تنتقد القحاب أوضاعا يرضى عنها الرّجال:

«w belehi a3inin anti b samtiki inti w amthalik taw tchouf kifech denia tarka7»

(وبالله أعينينا أنت بصمتك وأمثالك توّ تشوف كيفاش دنيا تركح)

ماذا تريد القحبة؟

القحبة، هذه المرأة المتّسخة النّجسة الّتي تجرأ على الحديث في الشّأن العامّ، هذه المرأة المنفعلة والفاعلة في آن، هذه المرأة الّتي تمتلك سلطانا كبيرا جدّا على الرّجال، هذه المرأة التي تتجرّأ على الدّالّة القضيبيّة...هذه صفات كثيرة مزعجة، هي صفات تدمّر السّائد الاجتماعيّ وتلقي بحجر في مياه العلاقات الجندريّة الرّاكدة. هذه صفات امرأة تخرج عن المألوف، وكلُّ من يخرج عن المألوف يعدّ شخصا غريبا، فمن لا يعجبه المألوف لا يعجبه أيّ شيء:

«mahou 3ajbek chay enty»(ماهو عاجبك شيء أنت؟)

ويتكرّر هذا التعليق مرّات بأشكال مختلفة:

«maye3jbek chay enti ??»(ما يعجبك شيء إنت؟؟)

ينتهي الأمر إلى الإقرار بنوع من العجز عن إرضاء القحبة يجسّمه استعمال لفظ: "زايد". وكأنّ أصحاب التّعاليق سلّموا أمرهم إلى الله تعالى بعد محاولات طويلة للفهم:

«zeyed hal malhat ma3ajebha chay»

(زايد ها الملهط ما عاجبها شيء)

إنّ كلّ ما سبق يضع "القحبة" في موضع من يقيّم ويحدّد المعنى، فيستحيل إرضاؤه من جهة، ويستحيل فهمه من جهة أخرى. فكأنّ لسان حال الشّاتمين يستلهم من فرويد سؤاله الشّهير: "ماذا تريد المرأة؟" ليحيل بشكل مختلف وبمضمون واحد على القحبة/المرأة:

«wallahi hal 5amja lafhimtha ech t7eb»

(والله، ها الخامجة لا فهمتها آش تحبّ)

وراء كلّ قحبة رجل فاشل

القحبة/المرأةالفاعلة تزلزل الموازنات الجندريّة الاجتماعيّة التّقليديّة الّتي تجعل السّلطة بيد الرّجل، وتجعل المرأة خاضعة لهذه السّلطة الذّكوريّة.

القحبة هي امرأة لا يحكمها رجل، وهذا ما عبّر عنه التّعليق التّالي تصريحا:

"يا رب ريحنا من هذه المرأة الي بلا راجل يحكم فيها"

إنّ صاحب التّعليق لم يجد حلاّ لهذا لوضع المزري إلاّ أن يرفع يديه بالدّعاء إلى الله تعالى عسى يخلّصه من امرأة بلا رجل. إنّ المرأة بلا رجل مكشوف سترها، مفتقرة إلى ذكر "يحكمها" أو "يشكمها"، لذلك دعاني أحدهم إلى البحث عن رجل "يلمّني":

«Bara chouf rajel ylemek wsayeb alik medine wmeselem»

(برّ شوف رجل يلمّك وسيّب عليك من الدّين ومن الإسلام)

وتجد الجماعة أحيانا يغوصون في مخزون المجاز فيشبّهون المرأة الّتي بلا رجل، بالفرس الّتي لم تجد من يمسك لجامها:

"توا ما رقدت يا هم مازلت تكتب... يقوا عليك ربي... ملا فرس مسيبا و مالقات شكون يشدها..."(هكذا)

إنّ وجود القحبة أو المرأة الخارقة للقيود الاجتماعيّة إنّما هو من وجوه فشل الذّكر الّذي لم يستطع حصرالمرأة في وضعها الدّونيّ الطبيعيّ.

وهذا الرّجل الفاشل الأوّل هو الأب:

«Welmarzou9i arjel men hak alma5si bourguiba wella bouk elli ma wa2dekch 3la 5ater jibtlou el3ar»

(والمرزوقي أرجل من هاك المخصي بورقيبة وإلاّ بوك اللي ما وأدكش على خاطر جبت له العار)

إنّه أحرى بالأب أن يئد ابنته من أن تكون "قحبة"، وما أعمق صورة الوأد تثبت أنّ أنماط سلوك الجاهليّة ما تزال كامنة فينا رغم ادّعاءات التّأسلم ورغم واقع الحداثة. ومن جهة أخرى، فإنّ هذا التّعليق يمزج قصور الأب البيولوجيّ بقصور الأب الرّمزيّ أو أب الأمّة "بورقيبة"[15]. فبورقيبة بفشله هذا، وبسماحه ضمنيّا بوجود "القحاب" يكتسب أبرز صفاتهنّ السّالفة الذّكر وهي صفة "الوسخ". ولذلك يستحقّ بورقيبة أن يُشتم استحقاق أب القحبة أن يُشتم:

"نعلبوك وبو بورقيبة معاك"

ويؤكّد تعليق آخر:

«khab kilo min bourguiba la tirhamlou 3adma»

(قحاب كلّه من بورقيبة لا ترحم له عظمة)

أمّا "المرزوقي"[16] فيتّصف، مقابل ذلك، بصفة الرّجولة. إنّه ذاك النّموذج المتحسّر عليه، إنّه ذاك النّموذج الّذي أهانه كلّ من الأب الرّمزيّ والأب البيولوجيّ.

[151515] الحبيب بورقيبة (1903–2000): زعيم سياسيّ تونسيّ ساهم في استقلال تونس. شغل منصب رئيس الجمهوريّة التّونسيّة من 1957 إلى 1987.

[16] المنصف المرزوقي: طبيب و"حقوقي" شغل منصب رئيس الجمهوريّة التّونسيّة بين 2011 و2014.

وبما أنّ المرأة، في التّصوّر العربيّ الإسلاميّ وفي المخيال التّونسيّ، تخرج من سلطة الأب إلى سلطة الزّوج، وبما أنّ الأب كان مقصّرا في حماية صرح الذّكورة والرّجولة، فإنّه من المفروض أن يقوم الزّوج بدور الحماية ذاك. لكن أنّى لزوج "القحبة" أن يكون رجلا بمعنى الكلمة؟

«meskin rajel illi makhedhek wella illi bech yakhdhek ma3a ihtirazi 3ala kilmet rajil khater illi makhedhek wella illi bech yakhdhek mahouch rajel »

(مسكين رجل اللي ماخذك وإلاّ إلّي باش ياخذك، مع احترازي على كلمة رجل خاطر اللي ماخذك وإلاّ إلّي باش ياخذك ما هوش رجل)

وإذا كان صاحب هذا التّعليق يستبق غياب الرّجولة لدى زوج القحبة، فإنّ تعليقا آخر -لعلّ صاحبه يعرف أنّي متزوّجة- يحمّل مسؤوليّة انفلاتي الكاملة للزّوج المخلّ بوظيفته ودوره إخلالا يسمح بتحقيره وتصغيره، فهو ليس رجلا حاملا لواء الفحولة، وإنّما مجرّد "رويجل" عاجز عن ردع زوجته عن غيّها:

"أما العيب في هاك الرويجل عندك اللي مسيبك بلا رادع افففففففففففف على الرجال افففففففففففففف"

وبما أنّ هذا الزّوج عاجز فلا بدّ من التّفكير في معوّض قادر على القيام بدوره في تأديب المرأة وعقد لسانها:

"اسكتي اسكتي يا مراهقة سوف نبحث لك عن زوج يؤدّبك ويعقد لسانك عن الإيذاء والكذب وقلّة الأدب"

الدّيّوث

إنّحماية السّلطة الذّكوريّة ليست فرض كفاية يقوم به الأب أو الزّوج فيسقطَ عن سائر رجال المسلمين، وإنّما ردع النّساء فرض عين على الرّجال جميعهم، ومن مصائب الزّمان أن يخلّ بعض الرّجال بدورهم هذا. إنّ هؤلاء الرّجال القابلين ل"ارتفاع" المرأة والسّاكتين عن خروجها عن طوق التّقاليد والسّائد إنّما ينتمون إلى صنف "الدّيوث" من الرّجال والعياذ بالله. إنّ لفظ "الدّيوث" لفظ جديد في الاستعمال لدى التونسيّين استحدث مع عبارات الإسلام السّياسيّ المتنوّعة ولقي صدى طيّبا لدى المعلّقين فتواتر وانتشر[17].

والدّيوث هو ذاك الّذي يقبلأن تكون المرأة ندّا له. الدّيّوث هو جاهل أو غافل لا يتصوّر خطورة مساواة المرأة له. الدّيّوث هو متأثّر بالغرب الكافر، وبين الدّيّوث والمأبون مسافة صغيرة جدّا إذ كلاهما فاقد للفحولة والنّخوة الذّكوريّة.

---

[17]هناك بعض العبارات الّتي انتشرت في تونس من أواسط الألفيّة الثّانية وترسّخت منذ 2011 شأن: "جعله الله في ميزان حسناتك" أو "طيّب الله ثراه" أو التّحيّة ب"السلام عليكم" بدل "عسلامة" إلخ...

يقول أحدهم مجيبا رجلا علّق على صفحتي داعيا إلى ضرورة تحقيق المساواة بين الرّجال والنّساء:

"مساوات يا ميبون أختك كتنيك نرمال ما تنجمش تمنعها حرة يا ديوث يا كلب الغرب" (هكذا)

إنّ تمثّل هذا الشّخص للمساواة بين الرّجل والمرأة هو السّماح للمرأة بأن تكون لها علاقات جنسيّة (تنيك)، أكيد أنّها ستكون علاقات خارج إطار الزّواج، وأكيد أنها ستكون هي فيها الفاعلة بدليل الفعل المستعمل. وهذه المساواة ضرب من التّسيّب يحطّ من شأن المقدرة الذّكوريّة على منع النّساء من الفساد. وما اختيار الأخت إلاّ مثال على النّساء اللّواتي هنّ تحت السّيطرة الذّكوريّة، فالأخ يجب أن يحكم أخته وإلاّ فإنّها، ويا للهول، ستتنيك. فإمّا رجل فحل يلجم الغريزة الأنثويّة أو ديّوث يعتبر الجنس "نُرْمال". "وإمّا حياة وإمّا فلا".

وهذا الدّيّوث خطر على النّظام الاجتماعيّ الجندريّ بل لعلّه أخطر من القحاب. لذلك يستحقّ القتل، وليس أيّ قتل، وإنّما القتل بقطع الرّأس بالطّريقة الدّاعشيّة الّتي هي وحدها تشفي الغليل وتريح النّفوس. ألا يقول المثل التّونسيّ: "قصّ الراس تنشف العروق؟"، وكيف ستجفّ عروق المساواة والحرّية بما

هما صنوان للفساد والرّذيلة دون قطع رأس كلّ ديّوث لا نخوة ذكوريّة له:

«Kalb dayouth…loukan tetkhartef te7ti ma ngouslek rasek 7aywen»

(كلب ديّوث...لو كان تتخرطف تحتي ما نقصّ لك راسك، حيوان)

ولعلّ اختيار صاحب التّعليق أن يكون الدّيّوث تحته ليس اعتباطا ولا صدفة، فالثّقافة السّائدة تستهجن من هو "تحت". ونصير القحاب لا يمكن إلاّ أن يخضع للدّالّة القضيبيّة الذّكوريّة فيغدو مفعولا به حتّى يعيبفداحة جرمه.

القحاب سبب المصائب

إنّ للقحاب أو للنّساء المنفلتات تأثيرا سلبيّا قويّا جدّا، فبسببهنّ كانت تونس بلادا منكوبة، وقد عبّر البعض عن هذه النّكبة بأنّها بلاد "مهرودة".

"النسا هوما الي هردوها البلاد يحبوها ليهم والقوانين لكلها تساعدهم"

وبسبب النّساء كانت تونس بلادا متخلّفة:

"لولاكن وأمثالكنّ لكنّا ضمن البلدان المتقدّمة (لا تريدين إلا الفساق وتكرهون من يخشى الله أردتم حتى تقنين المواخير والحرية الجنسية وتسعير الخمر)" (هكذا)

لـيس التّخلّـف إذن نتيجــة للجهـل والكسـل والتّواكـل وسـوء التّصرّف، وإنّما التّخلّف نتيجة القوانين الّتي يراها البعض في صالح المرأة، وهو نتيجة لفسق النساء وكرههنّ من يخشى الله. بعبارة أخرى، التّخلّف سببه أنّ النّساء، والعياذ بالله، ركبن على الرّجال في تونس:

«Chthebou mousawet yezi ma rekbet lemra 3ala erajel»

(آش تحبّو مساواة، يزّي ما ركبت المرأة على الرّجل)

وصورة الرّكوب هذه متّسقة مع ما أسلفناه من خروج "القحبة" عن دور الانفعال رمزيّا وتحوّلها إلى فاعل يؤثّر في الواقع[18]. ولعـلّ فـي تـذكير الـبعض بـدور المـرأة التّونسـيّة فـي نتـائج انتخابات2014 بتونس مثالا واضحا على حصول المشاكل ما أن تقترن الأنوثة بالفعل.

"الجزائر بلاد المليون شهيد وتونس بلاد المليون مرا حسبيا الله ونعم الوكيييييييل" (هكذا)

هذا التّعليق يقابل بين بلدين عربيّين أحدهما بلد الشّهداء الّذين لا يكونون وفق المتكلّم إلاّ رجالا صناديد، والآخر بلد النّساء

[18]يُكره في الأوضاع الجنسية ركوب المرأة على الرّجل. انظر: آمال قرامي: الاختلاف في الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، بيروت، المدار الإسلاميّ 2007، ص683.

اللّواتي أسقطن عبر الانتخابات حزبا إسلاميّا. تصوّروا مليون امرأة...أصلا كثرة النّساء مشكلة ومصيبة في ذاتها في المخيال العربيّ المسلم. أليس من علامات السّاعة أن يكثر النّساء ويقلّ الرّجال؟[19]. ولكنّ المصيبة تتعمّق وتغدو كارثة إذ انتخب هؤلاء النّسوة مرشّحا لا يرضى عنه صاحب التعليق، فيناله ما ينالهنّ.

«3asba likem wel baji m3akim»

"عصبة ليكم وللباجي معكم"

والمهمّ في هذا كلّه أن نتأكّد أنّ سبب الخراب هنّ النّساء، بل إنّ أحدهم يستعمل أسلوب الحصر لبيان الفاعل الأوحد المسؤول عن الخراب:

"لا يخرب البلاد إلا نساءها" (هكذا)

ولفرطتأثير المرأة السّلبيّ فإنّها ليست فقط سبب تخلّف البلاد وخرابها وإنّما هي سبب غضب الله تعالى علينا. وكيف لا يغضب الله تعالى علينا والنّساء أصبحن فاعلات، كيف لا يغضب الله تعالى عنا والنّساء أصبحن قحابا؟

«Allah la trabba7kom, jorrekom entoum 7atta rabbi ghdhab 3lina»

---

[19] يقول الحديث: "إنّ من أشراط السّاعة أن يرفع العلم ويكثر الجهل ويكثر الزّنى ويكثر شرب الخمر ويقلّ الرّجال ويكثر النّساء حتى ليكون لخمسين امرأة القيّم الواحد". انظر صحيح البخاري، بإذن الله

(الله لا تربّحكم، جرّتكم إنتم حتّى ربّي غضب علينا)

وإزاء هذا الوضـع المزري، لا يمكن إلاّ أن نرفـع اليدين ونـدعوَ الله تعالى أن يخفّف عنّا ويسترنا:

"مَن سبب غضب الخالق على بلادنا وربّي يسترنا أن يتحقّق وعيد ربّنا في القرآن للقرى الّتي يكثر فيها الفساد والتّطاول على دين الله وأولياءه" (هكذا)

وبين من يقرّ بغضب الله تعالى على البلاد بسبب انفلات عقال النّساء ومن يدعو الله تعالى لأن يسترنا ويخفّف عنّا، تجد من يفسّر تحقّق السّتر النّسبيّ بكثرة المحسنين التّائبين.

"الحمـد لله الـذي لـم يعاقبنـا الله (زلـزال وكـوارث عـدّة) لـولا كثـرت المحسنين التاءبين" (هكذا)

كثرة المحسنين التّائبين شفعت لتونس لدى الله تعالى. ولذلك تمّ التّقليص من سلطان القحاب المطلق الّذي كان بإمكانه أن يجرّ البلاد إلـى مـا لا يُحمد عقباه. لقد اختـار الله تعـالى أن يُراعـيَ المحسـنين التّـائبين فـلا يبتلـي تـونس، رغـم كثـرة القحـاب فيهـا، بـالزّلازل والكـوارث. واكتفـى بتركهـا بـلادا متخلّفـة خربـة فقـط. والحمد لله الّذي لا يُحمد على مكروه سواه. وقدّر ولطف.

بين القحبة والmal baisée[20]

في إحدى كتبه قال راشد الغنّوشي، وهو من أبرز قيادات الإخوان، إنّ أهمّ وظائف المرأة هي الوظيفة الجنسيّة. ويبدو أنّ الشّاتمين على النّات يعتنقون النّظريّة ذاتها. فالمرأة إمّا أن تكون قحبة أو أن تكون محرومة من الجنس، أو بالعبارة الفرنسيّة الشّائعة: mal baisée.هذا الحرمان الجنسيّ يُنتج أفعالا غريبة جسّمها التّعليق التّالي:

"مع احترامي، أعتقد أن ألفة يوسف لها مشكل جنسي أو تقصير في الاكتفاء الذّاتيّ أتساءل لماذا حذفتني من صفحتها الرّسميّة"

لا تتساءلنّ عن علاقة الحرمان الجنسيّ بالتّصرّف في حساب افتراضيّ. فقط عليك أن تقتنع أنّ هذا الحرمان نفسه هو الّذي يفسّر كلّ الهفوات والسّقطات بل السّقوط ذاته:

« Un niveau indescriptible de bassesse, elle prouve réellement qu'elle est très mal baisée. Malheureusement pour elle, même cette fois ci, elle n'a pas eu « jouissance » ; je suis prêt à lui payer trois sextoys, un pour sa gueule, un deuxième pour son vagin et un dernier pour son cul »

---

[20] كلّ التّراجم العربيّة لعبارة mal baisée لا تفي بالغرض. مرجعيّا: العبارة تحيل على المرأة غير المنكوحة كما ينبغي. ولكن المعنى الالتزاميّ أعمق إذ يفيد صورة امرأة قبيحة متوتّرة. العبارة العامّية: "ناقصة نيك" أقرب إلى التّعبير عن المعاني الالتزاميّة للعبارة الفرنسيّة الأصليّة.

بعد شكر هذا السّيّد على اهتمامه بمشاكلي الجنسيّة، وتجديد الشّكر له على كرمه الحاتميّ لاستعداده اشتراء "السّيكس توي" رغم ثمنها الغالي نسبيّا، لا سيّما بعد سقوط قيمة الدّينار، فإنّ اللاّفت للانتباه أنّ هذا التّعليق يحيل على بعد استيهاميّ (fantasmagorique) للشّتيمة. وهذا البعد هامّ قدر أهمّية السّعي الواضح إلى سدّ كلّ المنافذ الجسديّة الممكنة في هدف ظاهر وهميّ هو "إمتاعي" وهدف ضمنيّ حقيقيّ هو إسكاتي ومنعي من التّعبير. وهذا ما كشف عنه تعليق آخر بأسلوب مباشر:

"لو كان زوجك ينكحك جيّدا لما فتحت فمك ههههههههههههههههههههه"

مرّة أخرى نجد إشارة إلى دور الرّجل الهامّ في إسكات القحبة/ المرأة ومسك لجامها وكبح انحرافاتها وتجاوزاتها.

واللّطيف أنّ وصف الـmal baisée يبدو قائما على مفارقة. فهذا الوصف بحكم صيغته اللّغويّة يفترض أنّ المرأة مفعول بها، ومن ثمّ فإنّ الشّتم يطال مبدئيّا الرّجل الّذي فشل في فعل النّكاح. فكيف تكون هذه الصّفة إذن شتما للمرأة؟

يمكن أن نقرأ هذه الصّفة شتما للرّجل، لا لأيّ رجل طبعا، وإنّما للرّجل الّذي يتعامل مع امرأة منبوذة خارجة عن الأعراف، وهو

بذلك يستأهل الشّتم وعن جدارة. ومع ذلك فالأغلب على الظّنّ أن تكون mal baisée شتيمة متّجهة للمرأة لأنّ المرأة المفعول بها جوهرا هي مسؤولة عن كونها mal baisée باعتبارها لم تكن في مستوى جماليّ يثير الرّجل. وهذا ما عبّر عنه أحدهم معلّقا على صورة لي:

"عندي شك ناقصة حرث باقي ما تعرضش سلعة مضروبة كيف هني"

المرأة إذن سلعة، وهي مسؤولة عن غياب النّكاح أو سوئه. ومن هنا عبارة: "بائرة" التي تستعمل لكلّ من المرأة والسّلعة. وحتّى إن صادف وتزوّجت "البائرة" فإنّ نكاحها يصبح مدعاة للتّعجّب والتّسبيح لله تعالى:

"عجبا لزوج يستطيع أن يعاشر شيطانة مثلك...حتّى جنسيّا فإنّ جاذبيّتك سالبة...سبحان الله"

كيف تتحوّلين من قحبة إلى امرأة محترمة؟

لئن أشار بعض المعلّقين إلى أنّ القُحب يكون من المهد إلى اللّحد فإنّ البعض الآخر يقدّم وصفة للخروج من وضع القحبة إلى وضع المرأة المحترمة. ويفترض ذلك شروطا يجب الالتزام بها.

أوّل الشّروط وأهمّها أن تكوني متزوّجة:

"لو كان عرّست خير لك"

مفيد أنّ المعلّق يستعمل صيغة التّفضيل "خير" ولكنّه لا يحدّد المفضّل عليه. الزّواج خير لي، لكن خير لي من ماذا؟ من أن لا أتزوّج؟ لو كان المقام نقاشا في فوائد الزواج لذهبنا هذا المذهب في التّأويل، ولكنّ الأمر ليس كذلك.قد يكون المقصود أيضا أنّ الزّواج خير من الكلام أو الخوض في الشّأن العام...ربّما، ولكن يبدو أنّ الزواج، وفق هذا التّعليق،هو الخير المطلق للمرأة. "خير" هنا هي أفعل تفضيل شاملة كقولك: "الله أكبر"، فالله ليس أكبر من موضوع آخر يقارن به، ولكنّه أكبر مطلقا. كذا الزّواج هو خير للمرأة في المطلق.

ويمكن أن نفهم هذا استنادا إلى ما سبق. فالمرأة، كما رأينا، قحبة من المهد إلى اللّحد. ولعلّ الزّوج بما هو مربّ وراسم للحدود وحام من الانحراف يشفع لدى المرأة فتتطهّر من نجاستها الأصليّة.

والمرأة المتزوّجة المثاليّة هي الولود، وماذا بعد الزّواج سوى إنجاب الأطفال الّذين ستعتني بهم المرأة النّموذجية؟ الاعتناء بالأبناء إذن هو ثاني الشّروط للتّحوّل من قحبة إلى امرأة محترمة، ولذلك تجد الجماعة ينصحون:

"اتلهى بصغارك"

ولا شكّ أنّ الاعتناء بالأطفال يكون في المنزل طبعا. فوحدها القحبة تلج الفضاء العموميّ فعلا وقولا:

«ya olfa bara ched rabi s8arek hetha ken enti m3arsa w ched darek»

(يا ألفة برّه شدّ ربّي صغارك، هذا كان إنت معرّسة وشدّ دارك)

وتربية الأطفال تقتضي عناية تامّة وتركيزا شاملا لا يسمح للمرأة بالهرطقة:

"ههه استحي على حالك اذهبي ربي أطفالك وكفاك من الهرطقة"

وبديهيّ أن تكون تربية الأطفال مصحوبة بالقيام بشؤون المنزل من غسيل وطبخ وسواهما، على أنّ التّركيز على الغسيل لافت للانتباه:

«kén mchiti nekti farka saboun kén 5irelek ya 9A7BA»

(كان مشيتي نكتي فركة صابون كان خير لك يا قحبة)

أو

«barra emchi ched 9as3a saboun khirlek mel facebook»

(برّه امشي شدّ قصعة صابون خير لك من الفايسبوك)

وربّما يفسّر هذا التّركيزعلى الغسيل بالصّورة التّقليديّة للمرأة المنحنية على إناء كبير مليء بالأغراض المتّسخة. وهي صورة شائعة في أفلام الخمسينات والسّتينات والسّبعينات حتّى انتشار

آلات الغسيل الأوتوماتيكيّة. أو ربّما لذلك علاقة بصورة المرأة النّجسة، فلعلّ وصلها بفعل التّنظيف قد يساهم بشكل غير مباشر في تنظيفها أيضا.

متزوّجةٌ قارّةٌ في البيت تربّي الأطفال وتقوم بشؤون المنزل، تلك هي المرأة النّموذج لدى شاتمي الفايسبوك. وذاك هو السّبيل للإفلات من صفة القحبة.ولكن هذه المرأة النّموذج تنقصها صفة أخرى أساسيّةهي صفة السّتر:

«ken mchit starti rou7ek 5ir pffffffffffffff»

(كان مشيت سترت روحك خير بففففففففف)

قد يفيد السّتر في فهم أوّل طلب ارتداء لباس مخصوص يغطّي الجسد، وهذا صحيح. على أنّ السّترأعمق من ذلك إذ أنّه في جوهره طلب للمرأة بأن تخفي لا جسدها فقط، وإنّما بأن تخفي ذاتها كلّها من الفضاء العموميّ، ولذلك تجد السّتر متّصلا بالحجب في البيوت وهجران الفضاء العامّ. وهذا ما وضّحه لي أحدهم بلغة واضحة بسيطة أو "بالعربي" كما قال هو نفسه:

"وبالعربي برا أستر روحك وشد دويرتك"

هذه سيّدتي شروط التحوّل من قحبة إلى امرأة محترمة. يكفي أن تتزوّجي وتعتني بأبنائك وتستري نفسك وتهجري الفضاء العامّ. وأرقىأنواع هذا الهجران هو الصّمت، وإذا كنت سيّدتي

طموحة، ورمت أن تكتسبي صفة الاحترام بدرجات عليا فإنّه يكون من الأفضل أن تقطعي النّفس أصلا:

"كان عليك أن تكتمي أنفاسك وتبلعي لسانك"

القحبة والمأبون

عنّ لنا من خلال قراءة الشّتائم الفايسبوكيّة البحث عن المقابل الذّكوريّ لكلمة قحبة. ونظرنا في صفحات وفيديوهات الطّالبي والصدّيق[21] وغيرهم ممّن طالهم الشّتم في تلك المرحلة التّاريخيّة نفسها. وبدا لنا أنّ النّظير الذّكوريّ للشّتم باعتماد كلمة "قحبة" هو الشّتم باعتماد كلمة "ميبون". فمن ذلك شتم الطّالبي:

"نعزبور ام ام امك القحبة يا ميبون زك امك العاهرة الميبونة شايب ميبون...تفييييييي"[22]

أو شتم يوسف الصّدّيق:

«miboun w kafer»(ميبون وكافر)

العلاقة بين العاهرة والمأبون أعمق ممّا تتصوّرون إذ كلاهما يقلب المواضعات الاجتماعيّة. فالقحبة امرأة تتحوّل إلى فاعلة،

---

[21] محمّد الطّالبي ويوسف الصّديق مفكّران إسلاميّان تونسيّان لهما كتب عديدة. وقد ظهرا إعلاميّا في الفترة المدروسة بما جلب لهما حصّتهما من الشّتائم والسّباب على النّات.

[22] عبارة الميبونة لدى المرأة تفيد معنى القحبة، وتتجاوز ذلك إلى معاني المرأة الرّاغبة في الجنس بشدّة.

والمـأبون رجـل يتحـوّل إلـى مفعـول. القحبـة والمـأبون كلاهمـا ممّنيسـتهجنه المخيـال الجمـاعيّ بـل يحتقـره.علـى أنّـه تجـدر الإشـارة إلـى أنّ عبـارة المـأبون ليسـت متـواترة فـي شـتم الـذّكور تـواتر عبـارة القحبـة فـي شـتم الإنـاث. ربّمـا لأنّ البعـد الجنسـيّ أولويّة لدى المرأة دون الرّجل[23].

[23]فـي مقابـل ضـمور البعـد الجنسـيّ فـي شـتم الرّجـال، شـاع الشّـتم بالجهـل والكفـر وكبـر السّـنّ. وربّما سنعود في بحث قادم إلى المقارنة بين الشّتائم وفق اختلاف موضوعها الجندريّ.

يا جاهلة

الجهل مبدئيّا شتيمة تقوم على النّفي، نفي اكتساب المرء لمعرفة أو علم أو ثقافة. وإذا كان الشّتم بوصف "القحبة" يحيل على الحقل الأخلاقيّ والاجتماعيّ الجندريّ، فإنّ الشّتم بصفة الجهل يحيل على قصور معرفيّ أو ذهنيّ. ويبان ضربا القصور هذان من خلال الكلام. أفلم يقل الفيلسوف سقراط لمخاطبه: تكلّم حتّى أراك؟[24]

دوالّ الجهل

نال كلامي أوصافا شتّى منها السّخف:

«ta7lilll sa5ifff»(تحليل سخيف)

وقد تساند صفةَ السّخف صفةُ التّفاهة:

« billéhi barra Or9éd a5tana mén tafahétk »

(بالله برّ ارقد اخطانا من تفاهتك)

وفي كلّ الحالات فإنّ الكلام السّخيف التّافه هو كلام فارغ:

« w yezzi bla klem fer8 »

(ويزّي بلا كلام فارغ)

---

[24] تُنسب القولة إلى سقراط وإن لم يتأكّد ذلك تاريخا.

ويُعبّر عن هذا الكلام الفارغ بالعامّيّة التّونسيّة بأنّه "تقشقيش حناك"

«wenti yezzik min t9ach9ich 7nek pour oui et pour non»

(وانت يزّيك من تقشقيش حناك لأتفه سبب)

وقد يستعمل بعضهم اللغة الفرنسيّة في مجال الشّتم، فتواترت عبارة connerieالّتي تعسر ترجمتها. لعلّها الحمق أو الغباء أو كلاهما معا. فما بالك لو كان هذا الحمق والغباء بلا حدود:

«le seul trou que je lui trouve pas de fond c votre connerie que vous déballez a longueur de journée» (sic)

كلّ ما سبق يصف كلام الجاهلة وأفكارها وقراءاتها وتحاليلها، ولكنّ الشّتيمة تتعمّق إذ تحيل مباشرة على الذّات لا على الكلام. فأن تقول لشخص إنّ كلامه "سخيف" أقلّ عنفا من أن تصفه هو نفسه بالسّخف، وأن تقول لشخص إنّ قراءته سطحيّة أقلّ أثرا من أن تصفه هو نفسه بالسّطحيّة.

لذلك تجد بعض المعلّقين يتجاوزون شتم الكلام إلى شتم الذّات، وعندها تتماهى الأنا المشتومة مع الجهل:

«ya jahla»(يا جاهلة)

وقد تتماهى مع الحمق:

"محلّلة حمقاء لا تفهم شيئا"

كالحمار يحمل أسفارا

على أنّ كلّ العبارات والأوصاف السّابقة مهما تنوّعت لا يمكن أن تشفي الغليل قدر ما يشفيه وصف "البهيمة". ذلك أنّ لكلمة "بهيمة" في العامّية التّونسيّة عمقا متجذّرا في المخيال الجماعيّ. فهي لا تحيل على الحيوان عموما كما هو أصل معناها في لغة العرب، لكنّها تحيل على الحمار بعيدا عن دلالته المرجعيّة[25]. كلمة "بهيم" و"بهيمة" بدلالتها الحافة هي أقصى درجات التّحقير في المجال الذّهني والمعرفيّ. أنت "بهيم" معناه أنك غبيّ أحمق جاهل ثقيل الفهم أو هذا كلّه مجتمعا. ونادر هو الطّفل التونسي الّذي لم يسمع كلمة "بهيم" تسند إليه في المنزل أو المدرسة، من أسرته أو خلاّنه أو معلّميه.

وعمق هذه الكلمة في المخيال حمل الشّاتمين على انتقائها وتشريفي بها:

«Bhima olfa» (بهيمة ألفة)

بل إنّ المعلّق اختار جملة اسميّة يسبق فيها الخبر المبتدأ تأكيدا للصّفة، فليست "ألفة بهيمة" ولكن "بهيمة ألفة". إنّ الصّفة تلخّص الشّخص، والكتاب يبان من عنوانه كما يُقال. ولا

[25] لاعتماد الكلمة في الشّتم عمق ضارب في التّراث العربيّ، انظر: سورة الجمعة، 5.

تتصـوّرنّ أنّ الوصـف بالجهـل يعـوّض الوصـف بالقحـب، فقـد تتظـافر صـفة القحـب الآنفـة الـذّكر علـى صـفة البهامـة فـي "كوكتال"انفجاريّ حارق:

"قحبة وبهيمة و مصتكة"

إنّ صِفة "بهيمة" تحقيريّة في ذاتها، فما بالك إذا بلغت درجاتها القصوى:

«enti abham olfaa ritha fi 7yeti»

(إنت أبهم ألفة ريتها في حياتي)

الرّويبضة

للجهل صفات وتلوينات ودوالّ، غير أنّ منها دالاّ يتكرّر مرارا ويستند إلـى حديث مفترض للرّسول عليـه الصّـلاة والسّـلام هذا نصّـه:

"عن أبـي هريـرة رضـي الله عنـه قـال: قـال رسـول الله صـلّى الله عليه وسلّم: "سيأتي على الناس سنوات خدّعات، يُصَدّق فيها الكاذب ويُكذَّب فيها الصـادق، ويُؤتمن فيها الخائن ويُخوَّن فيها الأمين، وينطـق فيها الرّويبضـة، قيل ومـا الرّويبضـة يـا رسـول الله؟ قال: الرّجل التّافه يتكلم في أمر العامّة".

الدّالّ المقصود هو: "رويبضة". وكلمة "رويبضة" هي مثل كلمة "ديّـوث" مـن مكتشـفات مـا بعـد 2011 فـي تـونس. هـي مـن

العبارات الّتي أصبحت شائعة على الألسن بفضل مواقع الإخوان الإلكترونيّة وأحاديث الشّيوخ التلفزيونيّة وكذلك مواقع التّواصل الاجتماعيّ. ويبدو أنّ هذه الكلمة لم يكن معروفا معناها حتّى زمن الرّسول إذ ينقل الحديثُ أنّ أبا هريرة سأل الرّسول فيها، ولا نعرف إذا كان الأمر جهلا لغويّا من أبي هريرة ناقلِ جلّ الأحاديث أم أنّ كلمة الرّويبضة كلمة استحدثها الرّسول آنذاك.

لا يهمّ، المهمّ أنّ الرّسول فسّر الكلمة ودقّقها. الرّويبضة هو الرّجل التّافه يتكلّم في أمور العامّة. وهل أكثر من هذا انطباقا على ألفة يوسف وأمثالها من التّفه؟

لذلك استحققت أن أوصف بالرّويبضة:

"يا رويبضة"

وقد تكرّر الاستشهاد بالحديث النّبويّ الخاصّ بالرّويبضة مرّات ومرّات. فإذا كان الرّسول نفسه قد أثبت أنّ أمثالي رويبضة، فهل يمكن تكذيب ذلك؟ الرّسول اطّلع على الغيب وشاهد التّفه أمثالي يتحدّثون في شؤون العامّة. فهل بعد إقرار الرّسول إقرار؟ وهل يمكن الاعتراض على كلام النبيّ القطعيّ؟ وهل يجرؤ

عاقل بعد الاحتجاج بالسّلطة[26] هذا أن ينفي عنّي شرف الانتماء إلى مجموعة "الرّويبضات"؟

طبعا لم يتساءل المعلّقون عن مدى صحّة هذا الحديث، ولم يتساءلوا عن مشكل في نعتي بالرّويبضة. فالحديث يشير إلى الرّجل يتكلّم في شؤون العامّة، ولم يشر إلى النّساء، فكيف تكون امرأة رويبضة، والرّويبضة رجل؟ لكن هل سنقف عند هذا التّفصيل الصّغير؟ أحيانا يكون التّمييز بين الرّجال والنّساء أساسيّا وأحيانا نتغاضى عنه من أجل نبل القضيّة، وهل أكثر نبلا من شتم الخصوم؟

ثمّ هل يمكن أن ننفي أنّي جاهلة تتحدّث في شؤون العامّة، فلنضرب الصّفح عن جنسي، ولأكن رويبضة كما أكّده الرّسول رغم أنّ الرّويبضة رجل. الأخطر أنّي أنا لست تافهة فقط، ولست أتكلّم في شؤون العامة فقط، ولكنّي أجرؤ على الحديث في شأن مخصوص من شؤون العامّة وهو الدّين. فهل بعد قلّة الحياء هذه قلّة حياء؟

"للأسف كل من هب ودب يتكلم ويتحدث في شرع الله"

---

[26] يقوم الاحتجاج بالسلطة (l'argument par l'autorité) على إسناد الفكرة إلى شخصيّة معترف بها فيكون تكذيب الفكرة ومناقشتها تكذيبا للشّخصيّة المعترف بها نفسها.

الأصل أنّ الحديث في الدّين ليس متاحا للجميع فضلا عن أن يكون متاحا لرويبضة مثلي:

"يا رويبضة يا زنديقة من أنت حتى تتكلمي في دين الله؟"

وقد يذهب في الظّنّ أنّ تتالي صفتي الرّويبضة والزّنديقة مفيد، فكأنّ سبب استنكار حديثي في الدّين هو زندقتي وكفري أي خروجي عن المنظومة المسلمة ممّا سنعود إليه لاحقا. ولكن قراءة التّعاليق تؤكّد أنّ المشكل ليس الزّندقة المفترضة. المشكل هو أنّ للحديث في الدّين شروطا منها أن تنتمي إلى هيكل يعترف به الجماعة أو في أضعف الأيمان أن تُمنحي رخصة في ذلك.

"كيف تخوضين في الدّين ولست من أهل الإفتاء؟ من زكّاك؟"

أن يزكّيَك أحد أو مؤسّسة أو جماعة أمر لازم حتى يُسمح لك بالتّفكير في مسائل الدّين. فلا يهمّ أن يكون الله تعالى خاطب النّاس جميعا، ولا يهمّ أن يكون الأمر بتدبّر القرآن متوجّها إلى النّاس بلا استثناء، ولا يهمّ أنّ القرآن دين ينفي الوساطة بين العبد وربّه. المهمّ أن يعترف بك الجماعة وإلاّ فالأصل أن تسكتي:

"تي اسكت يا رويبضة"

ولعلّه من سماحة نفس البعض وحسن خلقهم أنّهم يسمحون لك بالكلام، وأنت الرّويبضة، لكن بشرط اجتناب الحديث في الإسلام:

"تكلّمي في كلّ شيء إلا في الإسلام"

الجهل من مأتاه لا يُستغرب

على أنّه سواء كان جهلي شاملا أو كان مخصوصا بالدّين فهو أمر يكاد يكون بديهة، ولعلّ غيابه هو الّذي يفيد استنكارا:

«emteenmech twalli 3andek mo5 inti?»

(امتين ماش تولّي عندك مخ إنت؟)

بل إنّ درجات الجهل لديّ تغدو اكتشافا يوميّا ودرسا تقدّمه الحياة مجانا لمن استطاع إلى الحكمة سبيلا:

"فعلاً كل يوم يتبيّن المرء مدى ما وصل إليا الأحياء من جهل ونذالة أمثال ألفة يوسف"

وكيف لا يكون جهلي بديهيّا وجوهر المرأة هو اتّصافها بنقص العقل والدّين، فمن أين سيأتيها الفهم والعقل والحكمة؟

"ألفة يوسف سياسة النهضة ماكش باش تفهمها وعمرك باش تفهمها تعرف علاش: ببساطة خاطرك ناقصة عقل ودين يعني برا كمل عقلك ودينك ومن بعد إيجا أحكي على سيادك"

نكبتنا في نخبتنا

هذه العبارة الّتي نطق بها حمّادي الجبالي[27] رئيس الحكومة الأسبق زمن التّرويكا لاقت صدى كبيرا لدى الفايسبوكيّين. فهي تقوم على مفارقة: إثبات انتماء إلى النّخبة من جهة وبيان القصور والنّقص من جهة أخرى.

"نكبتنا في نخبتنا" عبّر عنها البعض بألفاظ أخرى قد تحيل على جماعة هم:

"***المثقّفون الجهلة***"

وقد تحيل على شخصي المتواضع دون سواه:

"***متقفة غبية الثقافة منكي براء يا جاهلة***"(هكذا)

لسائل أن يتساءل: أن تنعت الشّخص بالمثقّف يفترض أنّه ليس جاهلا، فكيف يكون مثقّفا وجاهلا في الآن نفسه؟

أجاب عن هذا السّؤال ضمنيّا أحد المعلّقين إذ قال:

«looooooool doctoura wibhima en +»

(دكتورة وبهيمة من فوق)

---

[27] حمّادي الجبالي: عضو نشيط من أعضاء حركة النّهضة التّونسيّة الّتي كانت معروفة سابقا بحركة الاتّجاه الإسلاميّ. تُنسب إليه تفجيرات طالت النّزل التّونسيّة في أوت 1986. سُجن سنوات طويلة زمن حكم الرّئيس بن علي. وتقلّد رئاسة الحكومة التّونسيّة من ديسمبر 2011 الى مارس 2013.

هذا التّعليق يحلّ المفارقة ويكشف بعض وجوهها. النّخبة التي تحدّث عنها حمّادي الجبالي ليست نخبة فعلا وإلاّ لما كانت نكبة. هي نخبة في نظر الآخرين، ولكنّها نكبة كما يراها الجبالي. بالضّبط مثلما أنّ "ألفة" دكتورة في نظر المنظومة الجامعيّة، ولكنّها في واقع الأمر "بهيمة" في نظر المعلّق.

الدّكتوراه و"البهامة" مفارقة تظهر بأشكال أخرى، فألفة أستاذة لكنّها أستاذة الغفلة، وألفة توصف بالمثّقفة لكنّها في واقع الأمر ليست مثقّفة:

"وأنت يا أستاذة الغفلة...لا ك تونسية و لا ك مثقّفة"

مرّة أخرى تسير المنظومة الكاذبة في طريق خاطئ فتعطي أستاذيّة لمن لا يستأهلها، وتصف بالثّقافة من لا حظّ له منها.

وفي هذا السّياق تتكرّر الإشارة إلى الشّهادات العلميّة وإلى الرّتبة الأكاديميّة:

"يكب سعد الدكتورا لشكون جات من المفروض تكون قدوة لطالباتك يا دكتورة"

الخلل إذن كامن في التقييم، الثّابت أنّك جاهلة "بهيمة" سخيفة غبيّة ما في ذلك شكّ، لكن هناك منظومة مّا جعلت منك "أستاذة" أو "مثقّفة" أو دكتورة"، هناك منظومة جعلت منك "سلطة معرفيّة" وسمحت لك بحديث مسموع.

هذه المكانة/ السّلطة هي الّتي يجب التّجهّم عليها لأنّها هي أصل الدّاء.

التّهجّم على المعرفة "المفترضة"

في تونس، عندما تنعت شخصا بأنّه فيلسوف، فهذا ذمّ بما يشبه المدح. نحن شعب لا يحبّ التّعقيد، والفلسفة وجه من وجوه التّعقيد. لذلك نربّي أطفالنا بأنّه ما أن يفكّر أحدهم خارج السّائد أو يطرح تساؤلات مستفزّة حتّى نقول له في استهجان واضح: "تي يزّي بلا تفلسيف".

الأصل أن لا نفكّر والأفضل أن نتّبع وننقل ونحفظ. وهذا ما جعل بعضهم ينشئ صفحة فايسبوك بعنوان:

"باش ألفة يوسف تحفظ جزء عم وتبطل تتفلسف في الدّين"

لا للعقل، نعم وألف نعم للنّقل. والتّفلسف في ذاته مشكل، فإذا ابتلي به الإنسان، فالأفضل أن يخفيه، وإذا ابتليتم بالتّفلسف فاستتروا:

«yé olfa inti philosophe ala rou7ék garde tes idées pour toi qui n'intéressent personnes d'autres»

الأفكار "المتفلسفة" لا تعني أحدا، وعندما يعرض الإنسان أفكاره الفلسفيّة أو أفكاره المختلفة، فإنّه يكون عرضة للشّتم. وهل من

المنطقيّ مثلا أن يساند شخص "بشار الأسد" سنة 2012 لمّا كان جلّ العالم وجلّ التونسيين ضدّه؟

«ffffffffffffffffffffffffffffffffff mamstek w maredhlek bachar 7atta hethi ma9tana3tech biha ya faylasoufet 3asrek »

(أفففففففففففففففففففففففففففففففف ما أمصتك وما أرذلك، بشّار، حتّى هذي ما اقتنعتش بها يا فيلسوفة عصرك)

"فيلسوفة عصرها" تتوهّم أنّها تفهم وأنّها تعرف. هنا مربط الفرس، هنا مصيبة النّخبة النّكبة، ذلك أنّ المعلّق إذ يقول: ***"الفاشلة الفة يوسف تفهم في الدّيبلوماسية"*** إنّما يلمح إلى أنّ الفاشلة ألفة يوسف تتوهم أنّها تفهم في الدّبلوماسية.

وقد يصرّح البعض بأنّ هذه المعرفة مفترضة وهميّة فحسب، فيستعمل أحدهم عبارة: "تعتبر نفسها" ويعمد آخر إلى فعل "تدّعي":

"ساقطة خلقيا وأخلاقيا وتعتبر نفسها من النخبة المثقفة"

"تدّعي ألفة يوسف أنّها تفهم الإسلام"

أنا أشتمك...إذن أنا أهتمّ بك

إنّ نعت الجاهلة يضمر مفارقة هامّة: ما الّذي يدفع شخصا إلى إضاعة وقته في الحديث مع جاهلة "تدّعي" المعرفة؟ ما الّذي يدفع شخصا إلى الإقرار بأنّ تعليقا مّا سخيف أو أحمق

أو غبيّ في حين أنّ له صفحة يمكن أن يكتب فيها ما يشاء من التّعاليق الذّكيّة العميقة ويتجاهل التعاليق "البهيمة"؟ ما الّذي يدفع شخصا إلى التّفاعل مع ما يكتبه شخص لا تأثير له؟ وبالعبارة التونسيّة شخص "ما حاسبو حدّ":

«ti inti jehla chkoun 7asbek min tounes»

"تي انت جاهلة شكون حاسبك من تونس"

ما الّذي يدعو متقبّلا إلى أن يردّ الفعل على النّباح؟

«hahahaha wallahi 7alek ysakhef ya 3za , nhar kemil winti tanba7…hal min moujib?? 3awnouha brabbi»

(هاهاهاها والله حالك يسخّف يا عزا، نهار كامل وانت تنبح...هل من مجيب؟؟ عاونوها بربّي)

هنا تظهر المفارقة، المعلّق الّي يؤكّد أن لا مجيب على كلام تافه، هو نفسه من يجيب. فما لا يعي به كثير من الشّاتمين هو أنّهم إذ ينعتونك بالجهل لتجريدك من القيمة المعرفيّة إنّما يسندون إليك تلك القيمة لا لفظا، وإنّما فعلا من خلال هوسهم بما تقول وبما تكتب. هم يعطونك باليمين قيمة سلبوها منك بالشّمال. إنّهم يعترفون بك سلطة معرفيّة من حيث لا يشعرون بل من حيث ينشدون العكس تماما.

هذا ما يعبّر عنه الحوار بين شخصين في إحدى صفحات الشّتم الحاملة لاسمي[28]حيث كتبت إحداهنّ:

«Le fait de consacrer une page pour discuter ce qu'elle dit : ça prouve que vous êtes intéressés par cette personne et vous ne la prenez pas à la légère»

فأجابها آخر:

«Ce que je ne prends pas à la légère, c'est la place que lui accordent les médias et ceux qu'on appelle l'élite intellectuelle tunisienne»

هوس "من الأفضل"؟

منطقيّا لا يمكن أن ينطق عبارة "نكبتنا في نخبتنا" من يُعترف له بانتماء إلى "نخبة" مهما يكن تمثّلنا لها[29]، لأنّه إذ ينطقها يجعل نفسه بالضّرورة نكبة.

من ينطق هذه العبارة ومن يندرج ضمن خلفيّاتها النّفسيّة وتبعاتها ال"فكريّة" هو شخص يستنكر على الغير أن يوصف بالنّخبة. وتجده عادة يقيم مقارنات ضمنيّة أو صريحة بين النّخبة المفترضة والنّكبة الفعليّة.

---

[28] اسم الصّفحة "*معا لمكافحة نفاق ألفة يوسف*"

[29] هذا يذكّرنا بمفارقة منطقيّة فلسفيّة، هي مفارقة الكاذب أو مفارقة "الكريتوا" التي تجسّمها الجملة التّالية: "كلّ الكريتوا كاذبون"، فهل يعدّ قائل هذه الجملة من الكريتوا صادقا أم كاذبا؟

وكثيرا ما تكون هذه المقارنات جماعيّة عامّة لا تخصّ المعلّق ذاته وإنّما تخصّ جماعة قد تكون جماعة التّونسيّين:

«ya 5emja w tefha…TOUNSI MOUCH JAHIL ya jahlawallah ma jehla ken enti ya ….»

(يا خامجة وتافهة... تونسي موش جاهل يا جاهلة، والله ما جاهلة كان انت يا...)

التّونسيّ ليس جاهلا وإنّما أنت هي الجاهلة، وليس من حقّك والحال تلك النّقد أو التّقييم إذ"***متى كانت السخيفة تحكم على العضماء؟***" (هكذا)

وقد تكون المقارنة بين الدّكاترة الفعليّين والدّكاترة المزيّفين.

«ya olfa youssef kan mchit tnaik 5hirlek. hakom syadek elli chaddin edawla. hakom yetsamaw dakatra mouch enti»

(يا ألفة يوسف كان مشيت تنيّك خير لك. هاكم أسيادك اللي شادّين الدّولة. هاكم يتسمّاو دكاترة موش أنت)

لا نحبّك...لا نصبر عليك

تثبت بعض التّعاليق أنّ المشكل الفعليّ ليس أنّك جاهلة بقدر ما هو في تصوّرهم أنّك "مغرورة" لأنّك "سلطة معرفيّة" وإن تكن كاذبة...لأنّك "نخبة" وإن تكن نكبة.

وعندما يجتمع الحمق مع الغرور والتّعالي فإنّ إصلاح الأمور يصبح أمرا ميؤوسا منه:

«Vous êtes désespérante d'arrogance et de bêtise!»

وتوهّم "الغرور" لدى الآخر قد يكون إقرارا صريحا:

«chbik yesser maghroura fech rou7ek chwaya w yezzik bla sabben 3bed»

(شبيك ياسر مغرورة، فشّ روحك شويّة ويزّيك بلا سبّان عباد)

وهذه المغرورة مفتقرة إلى من يذكّرها بحجمها الطّبيعيّ من خلال تعاليق متعدّدة متشابهة:

"ومن أنت؟"

"اشكونك انت يا انت؟"

"ومن انت حتى تقبلين او ترفضين؟"

سؤال "من أنت؟" يذكّر باستفهام العقيد القذافي رحمه الله في خطابه الشّهير سنة 2011 وعبارة "من أنتم" الّتي كرّرها مرّات. وإن كان ذاك السّؤال فعليّا فإنّ هذا الاستفهام استنكاريّ يضمر أنّك مستهجن محتقر ولكنّك تتوهّم قيمة غائبة.

وحتّى إذا تجسّم السّؤال استفهاما حقيقيّا فالإجابة على سؤال من أنت؟ المتكرّر يمكن أن يكون بكلّ بساطة: "أنا لا شيء"، لكن ماذا يفعل الشّاتم على حساب اللاّشيء؟ لماذا يمضي وقته في التّعليق على من لا تأثير له؟

"لا نحبّك لا نصبر عليك" مثل تونسي ينطبق على هذا الوضع لأنّ المعلّق ممزّق بين موقف سلبيّ منك من جهة وعدم قدرة

على تجاهلك من جهة أخرى. ومردّ غياب القدرة على التّجاهل ليس في واقع الأمر غرور الباثّ المفترض، وإنّما هو شعور نقص لدى المتقبّل جسّمته أحسن تجسيم عبارة "تكبتنا في نخبتنا". إنّ هذه العبارة تعطي المعلّق مقدرة مضاعفة، فهي تقتضي أنّه قادر على تقييم النّخبة، وهذا ما يقتضي أنّه أفضل من النّخبة أو أنّه نخبة النّخبة.

يا كافرة

هل أنت مسلمة؟

الإسلام في بلادي وراثة، فالنّاس يعتبرون أنّ كلّ التّونسيّين مسلمون. ومَنْ يخرج عن هذا الإجماع المبارك أو من يتصوّرون أنّه قد خرج عنه يصبح منبوذا مشتوما. ومن هنا هذا السّؤال الإنكاريّ الحارق الّذي طرحه أحدهم متبعا إيّاه بأكثر من عشر نقاط استفهام تؤكّد حيرة السّائل:

"هل انت مسلمة يا الفة يوسف ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟"

هذا السّؤال الحائر يعبّر عن مفارقة، فكيف تكونين مسلمة وأنت مشكلتك الإسلام؟

«hadhi mochkletha m3a leslam»

(هذي مشكلتها مع الإسلام)

وكيف تكونين مسلمة وأنت تسبّين الإسلام؟

«bhima olfa chatra kan fi sab leslam 9bal wtawa»

(بهيمة ألفة شاطرة كان في سبّ الإسلام قبل وتوّ)

وسبّ الإسلام هذا ممّا يجب أن يشهد عليه كلّ النّاس كي تتأكّد التّهمة وتثبت:

«9a3din nchoufou fi Olfa youssef kifah tseb fel islam»

(قاعدين نشوفو في ألفة يوسف كيفاش تسبّ في الإسلام)

وليس سبّ الإسلام هذا سبّا عرضيّا، ولكنّه سبّ مع سبق الإصرار والتّرصّد يدوم من "قبل" إلى "الآن". قبلَ ماذا؟ آه...نسيت أن أخبركم أن التّونسيّين في مرحلة زمنيّة مّا عوّضوا التّأريخ بما قبل المسيح وما بعد المسيح إلى التّأريخ بما قبل "الثّورة" وما بعد "الثّورة".

المؤامرة ضدّ الإسلام

إنّ شتمي المستمرّ للإسلام هي الصّفة الّتي سمحت لي بتقلّد بعض مناصب قبل الثّورة التّونسيّة أيْ قبل إعادة فتح تونس الكافرة من قبل المسلمين:

"تحب تعرف علاش يعطيوك بوست قويي على خاطر إنت تحارب في الدين" (هكذا)

واللاّفت للانتباه أنّهم يهبونك منصبا لأنّك حاربت الدّين، فإذا بك تواصل بعد المنصب محاربة الدّين:

"ألعلمك أو ثقافتك أو لآثارك الأدبية ترأست المكتبة الوطنية؟ ماذا قدّمت للمكتبة الوطنية سوى تجفيفها من الكتب العلمّية وملؤها

بكتب الشذوذ والجنس واللاأخلاق ثم تتوجها بمهزلتك حيرة مسلمة "(هكذا)

لا يهمّ أن يكون كتاب "حيرة مسلمة" مثلا سابقا لعملي على رأس المكتبة الوطنيّة[30]. المهمّ أنّ الدّائرة الجهنّميّة متحقّقة:

محاربة الدّين تؤدّي إلى منصب والمنصب يؤدّي إلى محاربة الدّين...ولا تتصوّرنّ هذه الدّائرة الجهنّمية صدفة أو عبثا، إنّها جزء من برنامج "شيطانيّ" وعنصر من مؤامرة جماعيّة هدفها محاربة الدّين:

"ألفة يوسف التي حرّروا لها الدكتورا والتي حصلت عليها وعلى بقية المناسب عن طريق المقبور الشرفي في تسميم المنخ العلمي" (هكذا)

وهذه المؤامرة على الدّين مختلف في مصدرها، إنّه برنامج المستشرقين لدى البعض:

"واضح إيش هي المسائل اللي تهمك وهمت المستشرقين وغيرهم"

وهذه المؤامرة هي تخطيط ماسونيّ لدى البعض الآخر:

"أبواق الماسونية تريد أن يتّهم الإسلام عبثا...رغم ما تملكون من قوة المال وإعلام وأموال كثيرة انكم خسرتم ولن يركع الإسلام لأحد"

---

[30] "حيرة مسلمة" هو كتاب لألفة يوسف صدر سنة 2008 عن دار سحر للنّشر. أمّا تقلّد منصب مديرة دار الكتب الوطنيّة فكان من أكتوبر 2009 إلى أفريل 2011.

والمؤامرة صهيونية لدى البعض الآخر بما جعل منّي:

«un agent sioniste de propagande et de division»

وقد يَجمع البعضُ بين أكثر من طرف متآمر إذ علّق أحدهم على فيديو لي بقوله:

"أجندة يهود مستشرقة"

مستشرقون أم صهاينة أم ماسونيّون، لا يهمّ. المهمّ وجود مؤامرة ضدّ الإسلام والمسلمين، والأهمّ أنّ هذه المؤامرة ضدّ الإسلام يقودها الكفّار أمثالي:

"الله يهلكك يا كافرة"

والكفر ذنب لا يغتفر:

"ليس بعد الكفر ذنب"

وقد يعوّض مصطلح الكفر بمصطلح الزّندقة أو الإلحاد أحيانا:

"يا زنديقة"

"أنا متأكّد أنّك من ملحدين" (هكذا)

لكن ما معنى كافرة أو زنديقة وملحدة لدى هؤلاء؟

الكفــر والعلمانيّــة واللائيكيّــة: "شكشــوكة" المرحلة[31]:

[31] الشّكشوكة أكلة تونسيّة أساسها جمع خضر مطبوخة في طبق واحد، وتتنوّع أصناف الشّكشوكة بتنوّع الخضر. وهي تعني في معناها الالتزاميّ كلّ خليط غير واضحة معالمه.

غالبا ما يستعمل الشّاتمون مصطلحي الكفر والعلمانيّة باعتبارهما مترادفين:

«Olfa barra nik ommék ya kéfra wallah manéktou tounés kén énti w amthélék wallah…(la 9anoun la dostour 9ala allah 9ala rasoul) w la 3élménya la mlou5éya la zébbi »

(ألفة برّة نيك أمّك يا كافرة، والله مانكتو تونس كان إنت وأمثالك والله...لا قانون لا دستور قال الله قال رسول. ولا علمانيّة لا ملوخيّة لا زبيّ)

لا تتساءلوا عمّا يفعل العضو التّناسليّ للمتحدّث في إقراره بكفري وبأنّ الدّستور هو كلام الله، فذاك ممّا سنعود إليه إذ نحلّل أساليب الشّتم. يكفي أن ننتبه الآن إلى أنّ الإيمان بالقانون والدّستور والعلمانيّة هو صنو الكفر.

ويؤكّدتعليق آخر علاقة التّقابل بين اللاّئيكيّة والإسلام إذ وصفني باللاّئيكية في مقارنة مع المسلم الّذي هو أشرف من اللاّئيكيّ.

«5amja ya malhit ya nakira ya la2ikiya ya monaf9a el moslmin achrif minek»

(خامجة يا ملهط يا ناكرة يا لائكيّة يا منافقة المسلمين أشرف منّك)

طبعا لن نتوقّع من الشّاتمين تحديدا لمعنى العلمانيّة واللاّئيكيّة والفويرقات بينهما. الثّابت فقط هو أنّ العلمانيّين واللاّئيكيّين

ضدّ الإسلام. والثّابت أيضا أنّ من خبر النّاس ولا سيّما النّساء يعرف أنّ:

"أغلب العلمانيات بمنحرفات" (هكذا)

وفي بعض الأحيان قد تتداخل اللاّئيكيّة مع الإلحاد والشّيوعيّة في شكشوكة معرفيّة متميّزة:

«5af rabi wyezik metnoufi9 rak ta7mel 3elm w9or2en wta7ki t9oul 3lik chiyou3eya wala mol7da»

(خاف ربّي ويزّيك من التّنوفيق راك تحمل علم وقرآن وتحكي تقول عليك شيوعيّة وإلاّ ملحدة)

واضحٌ ممّا سبق أنّ جلّ الشّاتمين لا يميّزون بين مصطلحات ومفاهيم أهمّ ما يجمعها، في رأيهم، أنّها مناقضة للإسلام بل مقاومة له.

لا للاجتهاد وإعمال العقل

لئن أقرّ الحديث بأنّ من اجتهد وأصاب فله أجران، وبأنّ من اجتهد ولم يصب فله أجر واحد، فإنّ شاتمي الفايسبوك يعتبرون أنّ من اجتهد ولم يصب لا أجرٌ له ولا أجران، وإنّما هو ممّن يحارب الدّين.

"إنت تحارب في شرع ربّي"

وهناك من رقّاني من المحلّيّة إلى الكونيّة، فارتفعتُ من محارِبة للإسلام إلى محارِبة لكلّ الأديان:

"هي أكبر مخرّبة لرسلات السماوية" (هكذا)

كيف يتجسّم هذا التّخريب؟

يتجسّم التّخريب من خلال اجتهادات وقراءات مختلفة يعدّها البعض أوساخا:

"يوسف الزنديق ألفة يوسف وغيرهم هذه النماذج تحتاج إلى دهس بالأرجل وضرب بالشباشب لأن المبيد الحشري والبف باف لا يؤثر فيهم والصابون لا ينظفهم والديكابون يعجز عن تنظيف افرزاتهم الفكرية"

يجب أن نشكر هذا المعلّق لاعترافه أنّ لنا على الأقلّ "إفرازات فكريّة" وإن تكن أوساخا. نفس هذه الإفرازات يصفها البعض الآخر بأنّها شبهات. وهؤلاء لا يكتفون باتّهام "أفكارك" بأنّها مقابلة لما يتصوّرونه مبادئ الدّين، وإنّما يعمدون إلى قراءة لغة الجسد من خلال الصّور والفيديوهات. وحينها، يكتشفون الكفر الخفيّ لا فحسب في الكلام وإنّما من خلال قراءة لغة العيون. سبحان الله، الصبّ تفضحه عيونه، وكذلك الكافر الزّنديق:

"هذا إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر أصلا وأشك في ذلك، ما تبطنينـ من زندقة وحقد على الإسلام والمسلمين ظاهر من عينيكي وكلامك المليء بالشّبهات" (هكذا)

ضدّ أحكام الدّين: هوس الحجاب والمثليّة

يؤكّد الشّاتمون أنّ مواقفي كلّها مقابلة للإسلام:

"لعنة الله عليك ديما موقفك ضد مبادئ الإسلام"

الإسلام يقوم على أركان خمسة هي الشهادتان والصّلاة والصّوم والزّكاة والحجّ لمن استطاع إليه سبيلا. وقد أضاف إليها البعض ركنا سادسا هو الحجاب. فلا شيء يثير حفيظة الشّاتمين قدر إقراري في اجتهاد نسبيّ أنّ الحجاب ليس فرضا دينيا. عندها أغدو امرأة لا أخاف الله وأرتكب معصية حراما:

"ألفة يوسف انتي وحدي ما بتخافي الله وليش عم تقولي انو لحجاب ليس فرضا على لاسلام والله حرام عليكي" (هكذا)

بل إنّ بعضهم يكاد يحصر تعاليم " إسلامهم الحنيف" في سترة شعر المرأة:

"تدّعي ألفة يوسف أنها تفهم الإسلام...فبكثرة ما فهمت حللت ما شاءت وحرمت ما شاءت...فادعت أن سترة شعر المرأة ليس من

الإسلام وليس فرض على المسلمات وحاربت تعاليم إسلامنا الحنيف" (هكذا)

ولمّا كان التّعميم مخلاً دوما، فقد سمح لي بعض المعلّقين، بارك الله فيهم، ببعض القراءات والاجتهادات. ولكنّها قراءات مشروطة،فمجال الحجاب يظلّ خطّا أحمر:

"بعضا من مطالبها هي مطالب شرعية ولكن مطلب التعري والسفور غير شرعي وغير مقبول" (هكذا)

وبغضّ الطّرف عن الخلط بين السّفور والتّعرّي وعن الخلط بين الإقرار والطّلب، فجائز التساؤل: مطلب التّعرّي والسّفور غير مقبول ممّن؟أكيد من السّلطة الدّينيّة التي وحدها تقرّر وتضبط الحدود. ولذلك تجد البعض يلجأ إلى الاحتجاج بالسّلطة الّذي من شأنه أن يحسم الجدل ويلجم العقول والأفواه. الحجاب فرض في الإسلام ما في ذلك شكّ لأنّ أمهات المؤمنين اعتمدنه. فمَنْ هي هذه الفاسقة الّتي ***" تظن حالها أكثر علما أو قيمة من أمهات المؤمنين"؟***

نفس التّركيز على استنكار "قراءتي" في مجال الحجاب، نجده في مجال "قراءتي" حول المثليّة الجنسيّة. واللّافت للانتباه في هذا المجال هو الخلط الواضح بين قراءة فكريّة من جهة ومنظومة التّحليل والتّحريم من جهة أخرى، فقد استنكر أحدهم:

"الله الـذي حـرم الزنـا بـين رجـل وامـرأة هـو نفـس الله الـذي أحـل السحاق و الفاحشة؟"

وعلى نهج الخلط ذاته، يقول معلّق آخر:

"كيف تبيحين اللواط والمثلية والله فـي كتابـ الحكيم يقول وجعلنا لكل ذكر انثى..... وتقول اية أخرى ولكم فـي الانعام عبرة... تـي فاش تحكي بربي... صحيح نكبة تونس في مثقفيها"

الطّريف أنّ جوهر بحثي يقوم على التّمييز بين اللّواط والمثليّة ولكنّ الجماعة لا تقرأ طبعا. وهم لم يقرؤوا حتّى القرآن الّذي لا يوجد فيه ما نسبه إليه المعلّق: "وجعلنا لكل ذكر أنثى" إلاّ ربّما في خيالات المتكلّم الجنسيّة. ومن جهة أخرى، فإنّنا لا نفهم ما دخل الأنعام في المسألة، اللهمّ إلاّ إذا كان المتكلّم يتصوّر أنّ الأنعام هي نموذج علينا احتذاؤه وإذا كان يتصوّر أنْ لا وجود لعلاقات "مثليّة" في صفوف الأنعام، هذا بغضّ الطّرف عن سياق الآية الّذي لا علاقة له بهذه المسائل جميعها[32].

الثّابت أنّ أصدق ما في كلام المعلّق هو قوله: "فاش تحكي بربّي" دليلا على عدم الفهم والتعجّب الاستنكاري من مدى جهلي. وهو جهل عبّر عنه أحدهم بالتّفلسف وبالسّذاجة. وكيف لا أكون ساذجة وأنا أقرّ أنّ الزّواج عمل ثقافي اجتماعيّ في

[32] المعلّق ذكر الآية خاطئة، ولعلّه يعني قول الله تعالى: "وإنّ لكم في الأنعام لعبرة": النّحل،66.

حين أنّه كما يراه صاحب التّعليق علاقة غريزية بدأت بين آدم وحوّاء :

"الزواج بين الذكر والانثى هي علاقة طبيعية قبل ما تكون اجتماعية. لانها غريزية ملي ربي خلق ادم و حواء بش تكون فما استمرارية للحياة. يعني كفاك تفلسفا او بالاحرى كفاك سذاجة"

طبعا لم يوضّح لنا المعلّق الصّديق لدى أيّ ضابط حالة مدنيّة أو لدى أيّ عدل إشهاد حرّر آدم وحوّاء عقد زواجهما أو لعلّه كان عقد زواج عرفيّ شهد عليه ملَكان.

وبين الاستنكار والنّعت بالسّذاجة والتّفلسف، نجد من يتعامل مع القراءة المختلفة للمثليّة على أساس أنّها من الشّطحات:

"آخر شطحات الشّيخة ألفة يوسف اللواط موش حرام إذا كان باتّفاق بين الرّجلين، لا حول ولا قوّة إلاّ بالله"

والمتكلّم لا يقصد ب"الشّطحات" المعنى الصوفيّ طبعا، وإنّما يعبّر عن غرابة القراءة، فالخروج عن السّائد عجب عجاب حتّى إنّ المعلّق لم يجد حلاّ إلاّ بالحوقلة واستذكار الله تعالى. وكيف لا يستجير المرء بالله تعالى والموضوع المطروح "بورنغرافي" وفق البعض؟:

"ألفة بورنو محللة اللواط بين الشواذ إذا كان برضا الطّرفين"

الأهمّ في هذا التّعليق ليس العودة إلى منظومة التّحليل والتّحريم ولا الخلط بين اللّواط والمثليّة ولا نعت المثليّين بالشّواذّ، وإنّما تصوّرُ طرح المسائل الجنسيّة في مجال فكريّ على أساس أنّها بورنوغرافيا. ومعلوم أنّ القرآن يعرض لمسائل الجنس، و"الشّيوخُ"[33] يطرحون هذه القضايا، ولكن يجوز للشّيوخ ما يجوز لغيرهم. فلا يُنعتون بشيوخ البورنو بل على العكس يُعتمد عليهم في نوع من الاحتجاج بالسّلطة لبيان خطلي:

"هها توا الشيوخ متع المذاهب الكل (الأيمة متع الشيعة وشيوخ السنة والإباضية والدروز وووووو) الكل متفاهمين إلى ربي حرم الإجرام هذا وإنتي جاية تبرر."

ولئن أثارت بعض "قراءاتي" في مسائل دينيّة أخرى حفيظة البعض واتّهموني استنادا إليها بالكفر، فإنّ مسألتي الحجاب والمثليّة حظيتا بأكبر قدر من الاهتمام بلغ حدّ الهوس أحيانا. وقد نفسّر ذلك بأنّ الحجاب يحيل على السّيطرة على جسد المرأة وحصرها في صورة موضوع للرّغبة الذّكوريّة، أمّا الدّفاع عن الغيريّة أساسا للنّظام الجنسيّ والجندريّ، فهو تثبيت للدّالّة القضيبيّة وحفاظ عليها.

---

[33] مفهوم الشّيوخ هنا لا علاقة له بالمفهوم الصّوفيّ، ولعلّه أقرب إلى مفهوم الفقهاء القديم في لفظ اصطلاحيّ جديد متّصل بشهرة من أصبحوا يوسمون ب: "شيوخ الفضائيّات" ثمّ "شيوخ النّات" أيضا.

على أنّ جوهر المشكل الّذي يطرحه الاجتهاد أو القراءة المخالفة للسّائد ليس مدى تفاهتها وخطئها موضوعا ولا مدى دلالتها على جهل القارئ وكفره، وإنّما المشكل الأكبر هو الخوف من تأثيرها.

وهم الفتوى والخوف من العدوى

أكثر من مرّة أؤكّد أنّي لا أحلّل ولا أحرّم وأنّي أفكّر خارج منظومة الحلال والحرام معتبرة أنّ كلّ شخص حرّ في رؤاه واختياراته. ومع ذلك فالجماعة متمسّكون باعتباري أمارس الإفتاء:

"هذه العاهة الفكرية تسوّل لنفسها شرح الإسلام والإفتاء فيما لا تملك فيه علم" (هكذا)

وفي هذا السّياق، أنشأ بعضهم صفحة فايسبوك تحت مسمّى:

"شعب تونس المسلم ليس في حاجة لفتوى الرويبضة ألفة يوسف"

اللّطيف أنّ جلّ المعلّقين الشّاتمين يخلط بين قراءة في موضوع المثليّة ودعوة إلى المثليّة بل فتوى لممارستها، فتجدهم يتوهّمون أنّ هدف كتابتي عن المثليّة هو "نشرها":

"منحلة أخلاقيا وتهدف إلى نشر والترويج للفاحشة"

هم يتصوّرون أنّه ما أن يقرأ الغيريّون ما أكتب حتّى يتحوّل موضوع رغبتهم الجنسيّة من نوع إلى نوع آخر. وشيئا فشيئا،

وبقراءة كتاباتي الفاسقة، يتحوّل كلّ النّاس إلى مثليّين ويُقبر أمر الغيريّة والغيريّين إلى الأبد.

طبعا هؤلاء لا يعرفون أو يتجاهلون أنّ موضوع الرّغبة الجنسيّة لا واع وأنّه لا يتبدّل بقدرة كتاب أو فكرة أو نصيحة. لكن لا يهمّ، المهمّ أن يعي النّاس بخطورة أفكاري. لا يهمّ حتّى أن تقدّم هذه الأفكار بشكل خاطئ بالحديث عن إباحة للواط بما لا شأن لكتاباتي به[34] أو بإقرار أنّ الحجاب تخلّف ورجعية بما لم يرد على قلمي أو لساني. الهدف الأسمى هو منع هذه الأفكار من التّداول والانتشار. إنّ الشّاتمين لا يفكّرون خارج منطق الحكم الجماعيّ الّذي يخصّ القطيع كلّه، ومن هنا فإنّ خوفهم الأكبر هو إمكان تأثير قراءاتي الجاهلة الكافرة في الغير.

"نظرا لأن العديد من الزواحف البشرية تعتبر ألفة يوسف مفكرة فهل سيأتي يوم يقريو في ولادنا كتبها اللي تبيح فيها اللواط والزنا وتعتبر أن الحجاب تخلف ورجعية"

الجماعة في ورطة، والورطة هي في وعي فطريّ بأنّ الأفكار لا يمكن سجنها وبأنّ لها أجنحة كما ينسب إلى ابن رشد، المشكل هو أنّ الكتب ممّا لا يمكن التّكهّن بمدى تأثيره مستقبلا، ومن هنا استعمال كلمة "أولادنا". الخوف الكبير هو

[34] استندت بحوثي إلى التّمييز بين المثليّة واللّواط. انظر: حيرة مسلمة، ص بإذن الله.

فـي عـدم إمكـان السّـيطرة علـى الزّمـان وعلـى تفاعـل القـرّاء المفترضين. فما الحلّ؟

للحلّ وجهان:

يجب أوّلا مخاطبة القرّاء المفترضين لتحذيرهم من اتّباع "الفتوى" المفترضة. وليكون التّحذير أجدى، يجب أن نذكّر دوما بصفات صاحبة الفتوى، فهي فاسقة يجب أن يُحذر منها:

"احذروا من أمثال هؤلاء الفاسقين"

وحتّـى إن عمـد بعضـهم إلـى لهجـة رقيقـة ليـدعو بالهدايـة لمـن اعتقد أن الحجاب ليس فرضا فإنّه يحوّل تلك الرّقّة شتما عنيفا إذ يحذّر من اتّباع الزّنديقة الفاجرة الضّائعة:

"ما زال ثمـة شكون مـا تـابش لربـي ويعتبر الحجاب موش فرض، ربي يهدي ما خلق، أما رد بالكم اتبعو هاك الزّنديقـة، الفاجرة ألفة الضّايعة"

وبعد تحقير صاحبة الفكرة، يجب ثانيا تحقير شأن من يستمع لهـا أو يوافـق مـا تقول. فقد نعـتهم تعليـق سـابق ب"الزّواحـف البشريّة"، وينعتهم تعليق آخر بالعامّة:

"والله صغار طـلاب العلـم قـادر علـى أن يـدحض شـبهاتك الواهيـة التـي تنشرينـها بين العوام المساكين"

بعبارة أخرى، إمّا أن تتابع ما تكتبه ألفة يوسف فتكون زاحفة بشريّة في أقصى الأحوال ومن العوامّ المساكين في أدناها أو أن تكون ضدّ أفكارها بما يجعلك أقرب إلى طلاّب العلم المتفطّنين إلى الشّبهات. ويظلّ الاختيار لك...

الدّين لا يليق بك، وهذا على الحساب قبل قراءة الكتاب

عرضنا للتّعاليق التي تكفّر وتشتم بسبب رفض أصحابها لاجتهادات وقراءات يعتبرونها مخالفة للشّرع، على أنّ بعض المعلّقين لا يستندون إلى مضمون كلامي وإنّما يستندون إلى شخصي ليصدروا حكما باتّا قاطعا وهو أنّ الحديث في الدّين لا يليق بي:

"وبالله معادش تستشهد بآيات من القرآن الكريم ما يخرجش عليك حتى طرف راهو"

ولا يتركك الجماعة تحتار في سبب اعتبارهم أنّ الحديث في الدّين لا يليق بك، فالجواب واضح وهو أنّك منافقة:

«ya3tik 3asba enti monaf9a matest7a9ich bech ta7ki 3al mouled wil islam ya monaf9a»

(يعطيك عصبة إنت منافقة ما تستحقّيش باش تحكي على المولد والإسلام يا منافقة)

"منافقة" هي الكلمة السّحريّة، وليس من الصّدفة أن تتكرّر مرّتين في التّعليق. المنافق هو من يتظاهر بشيء ويخفي شيئا آخر مقابلا بل مناقضا له. وأنا، في هذا المقام، منافقة لأنّي أتحدّث في الدّين ولا ألتزم به:

"لو كان عملت اللي قال عليا ربي خير"

لن أناقش ما يتصوّره الجماعة من ضرورة وجود علاقة بين التّفكير في الدّين والالتزام به، فقد أسلفنا أنّهم لا يميّزون بين الفتوى والقراءة الفكريّة. لكن يمكن على الأقلّ أن نتساءل: كيف عرف المتحدّث أني لا "أعمل اللي قال عليه ربّي"

الأمر بسيط، ما هو ظاهر للعيان ويثبت أنّي مخالفة لشرع ربّهم هو أنّي "سافرة":

«i7arref kraymék ya séfra»

(يحرّف كرايمك يا سافرة)

بل إنّ أحدهم أكّد أنّي لست مسلمة لأنّي لا أرتدي الحجاب:

"أنا مسلم وأنت لست مسلمة لأنك لا تلبسين الحجاب"

والثّابت أنّه سواء كنت مسلمة أو "كافرة" فإنّ البعض يرى في كلامي عن الدّين تناقضا مهولا يبيح السّبّ والشّتم:

"الله يهلكك يا كافرة يا عاهرة. متبرّجة تحكي على القرآن"

يا إلهي، كيف وصلت الأمور إلى هذا الحدّ؟ متبرّجة تتحدّث في القرآن، سافرة تتكلّم في الدّين، بل إنّها قد تخدع البعض ممّن لم يفطنوا إلى هذا التّناقض الجوهريّ وإلى هذه المفارقة المهولة:

"البعض يحسبها مفكرة أو باحثة إسلاميّة وهي متبرجة من العيار الأول"

التّبرّج درجات، وأنا متبرّجة من العيار الأوّل. وربّما لم يوضّح لنا المعلّق مختلف درجات التّبرّج لأنّها من المعلوم بالضّرورة أو لأنّها درجات لا نهائيّة ما أنزل الله بها من سلطان. الأكيد هو أنّي كاسية عارية تتطاول على الدّين:

"لا تستغربو من هذه الكاسية العارية شيئ فهي تطاولت على القرآن ولم يكلمها أحد" (هكذا)

ومن اللطّيف أنّ الجماعة، من سماحتهم وطيبة نفسهم، يبيحون لك الحديث في الدّين بشرط أن تستري نفسك.

قد تكون هذه الإباحة بأسلوب ليّن:

"أختي سامحيني عندما تريدين التّكلّم في الدّين وتريدين معجبين بكلامك الرائع وغيرتك وحبّك الزمي الحجاب فقط"

وقد تكون الإباحة بأسلوب "خشن":

"استري روحك واهدري في الدّين يا ملحدة"

لا يهمّ أن تكوني ملحدة، فعندما تسترين نفسك ستتحوّلين بقدرة القماش إلى مسلمة يجوز لها الحديث في الدّين. وسبحان قدرة الخمار على إخراجك من ظلام الكفر إلى نور الإيمان. وكيف لا وسرّ البحث في الدّين وسرّ العلاقة بالله تعالى متّصل بالشّعر، ذاك الّذي ينبت على الرّأس:

"وانتي بشعرك العاري...مالك ومال الدين"

أو ذاك الّذي نجده فوق العينين أي شعر الحاجبين:

"هها سافرة متنمّصة تحكي عن دين الله"

الشّيطان باستحقاق

كلّ ما سبق من وصف بالكفر والإلحاد والجهل بالدّين، إضافة إلى الاجتهادات المشبوهة والحديث في القرآن وأنا متبرّجة، هو جماع ذنوب تمنحني بكلّ شرف علاقة وثيقة بالشّيطان.

في البدء يكون إبليس ورائي دافعا لكلّ ذنوبي السّابقة الفادحة وعلى رأسها طبعا إنكار الحجاب فرضا:

"أظنها لم تقرأ آيات الحجاب أو ربما تريد هي ومن ورائها إبليس تحدي الله عز وجل بالسؤال عن حكم شرعيّ"

وفي مرحلة ثانية يكون الشّيطان مشغّلي:

"تفووه عليها ملحدة احذروها...إنّها جند من جنود الشّيطان"

وأخيرا يتّخذ إبليس رمزيّا مرتبة الأب، ونعم النّسب:

"ألفة يوسف بنت إبليس"

لكن أن يكون إبليس ورائي أو أبا لي لا يشفي الصّدور، فهو في الحالتين مستقلّ عنّي. والأب مهما اتّصل بابنته يظلّ ماهية أخرى. الأجدر في حالتي أن أتماهى مع الشّيطان، أن أكون أنا الشّيطان نفسه. وهذا ما عبّر عنه أحدهم إذ عرضت مرّة لمفهوم التّوحيد، فقال محيلا عليّ:

"الشّيطان يعمد إلى التّوحيد"

وصرّح آخر مباشرة:

"أنت شيطان رجيم وارتدى ثوب الحرائر"

ولئن لم يسمح لي فهمي المتواضع بتبيّن علاقة التّقابل بين الشّيطان والحرائر، فقد فهمت على الأقلّ أنّ المعلّق أشار إلى وجود مغالطة بين الثّوب الّذي أرتديه وحقيقتي الشّيطانيّة. ومهمّ أنّ فطنة المعلّق مكّنته من أن يكشف هذه المغالطة، والأهمّ أنّ ذكاءه سمح له بأن يكتشف وراء الثّوب الظّاهر الوجه الشّيطانيّ الرّجيم.

على أنّ هذا الشّخص لم يكن وحده من اكتشف هويّتي الشّيطانيّة الخفيّة، إذ أنّ معلّقا آخر توصّل إلى الاكتشاف نفسه. ومن ثقته بما يراه أقسم بالله أنّي شيطان، ووعد أن يشهد أمام الله تعالى بأنّي واحد من الشّياطين. فلربّما ينسى الله تعالى

ذلك ويفتقر إلى صديقي المعلّق ليذكّره بانتمائي إلى مجموعة الشّياطين:

"وأخيرا والله إني أراك شيطانا امامي و الله اني ساشهد عليك بين يد الله و اقول انها كانت من الشياطين اللذين يفسدون في الأرض"

وأمّا وقد أقسم المتكلّم بالله، وثبت دون أيّ مجال للشّك أنّي شيطان، فبديهيّ أن لا أستحقّ إلاّ اللّعنة، وبكلّ جدارة:

"لعنة الله عليك"

يا مريضة...يا عجوز...يا جارية بن علي (متفرّقات الشّتم)

صفات القحبة والجاهلة والكافرة وما سكن حقلها الدّلالي كانت متواترة جدّا. الصّفات الواردة في هذا الفصل كان حضورها أقلّ نسبيّا. ربّما لأنّ المرض وكبر السّنّ ممّا قد يلحق النّاس جميعا، أو ربّما لأنّ من أمكنه الأكثر أمكنه الأقلّ، فلا نتعجّب أن تكون القحبة الجاهلة الكافرة جارية لبن علي.

يا مريضة:

صفة المريضة اتّجهت إلى أفكاري في مرحلة أولى:

"والله اجتهادها عقلي امريض" (هكذا)

«wellahi mridha wm9wda fi mo5ek inti !!!»

(والله مريضة مقوّدة في مخّك إنت)

المرض أصاب الاجتهاد العقليّ ثمّ انتشر ليشمل ذاتي كلّها:

"إنتي مريضة نفسانيّا" (هكذا)

اكتشف الجماعة أنّي مريضة، واتّفقوا أنّ مرضي ليس جسديّا، لكنّ مواقفهم تباينت بين من يعتبره مرضا نفسيّا ومن يعتبره مرضا عقليّا.

"ساقطة خلقيا وأخلاقيا وتعتبر نفسها من النخبة المثقفة ومكانها الحقيقي في مستشفى الرازي لتتأكد من مداركها العقلية"

طبعا لا أتصوّر الشّاتمين أكفاء للتّمييز الدّقيق بين المرض النّفسيّ والمرض العقليّ. لكنّهم متأكّدون على الأقلّ أنّي لست متفطّنة إلى هذا المرض:

"شبيك مريضة نفسيا وإنت موش فايقة"

ولهذا المرض أسباب منها أنّه لا زوج لي:

«Enti meskina wcomplexe bara chouf rajel ylemek»

(أنت مسكينة ومعقّدة برّ شوف رجل يلمّك)

وكيف يمكن أن تكون المرأة دون زوج؟ هي بالضّرورة كتلة من العقد مسكينة تثير الشّفقة والألم. ولا بدّ أن ينتهي الأمر بكلّ امرأة دون زوج إلى المرض النّفسيّ والعقليّ. و"لا تنحّي شاشية على وليّة".

بل إنّ أحد المعلّقين ذهب إلى اكتشاف سرّ مرضي النّفسيّ انطلاقا من حكاية ألّفها تقول:

"هذه المرأة كانت لها علاقة عاطفيّة–وهي في الجامعة–مع شاب إسلاميّ اسم□ "الطيب" من جهة الساحل. هذا الطيب سرعان ما مل منها وبرم من تصرّفها وقلق من التصاقها، فخير تغيير الجامعة التي يدرس فيها والمسكن الذي يأوي إلي□. وفر بجلده من ألفة يوسف. هذا الفرار ترك جرحا نازفا غائرا في ذهنها وقلبها. وعوض أن تعالج علتها، وسعت ندبها...وأطلقت العنان لكرهها لكل ما هو إسلامي. بعد أن تميزت في الوشاية بالإسلاميين الذين وقعوا طرائد للبوليس السياسي ولجلاوزة النظامين السابقين. بدأ فصل مأساوي في تاريخ هذه المرأة حيث أعلنت الحرب على الإسلام أصلا".

مرضي النّفسيّ أو العقليّ له إذن سببان متّصلان بغياب الذّكوريّ الّذي من شأنه أن يعدل نقصان العقل الجوهريّ في كلّ أنثى. وبديهيّ، وقد غاب الزّوج وهجر الحبيب، أن يتمكّن من المرأة الدّاء النّفسيّ.

ولكن، إذا كان غياب الزّوج المفترض أو هجران الحبيب المنشود هما سبب المرض، فما هي تجلّياته؟ هي تجلّيات مختلفة تظهر لا شكّ في كلّ ما أكتبه. فقد أشار المعلّق السّابق إلى ما اعتبره "كرهي لكلّ ما هو إسلاميّ"، وأضاف آخر:

"عندك مرض إسم النهضة الله يجيبلك الشفاء"

وذكر تعليق ثالث مظهرا آخر واضحا من مظاهر المرض العقليّ. إنّه تهنئتي لمخرج تونسيّ بفوز شريطه بالتّانيت الذّهبيّ في مهرجان "كان". إلى هنا لا إشكال، لكنّ ما خفي كان أعظم: إنّه شريط يشجّع المثليّة ويتّفق مع الفتوى الّتي من المفروض أني أصدرتُها والّتي تقول إنّ المثليّة إسلاميّة:

«Olfa Youssef a écrit sur sa page facebook : «Félicitations à Kechiche…Vive le cinéma…Vive l'art »
Ces félicitations adressées par Olfa Youssef à Abdellatif Kechiche pour son film de promotion du saphisme, de tribadisme et autre lesbianisme sont en accord avec la fatwa qu'elle a émise dernièrement selon laquelle l'homosexualité est une pratique on ne peut plus islamique.
A contrario, la polygamie est une atrocité.
Ce renversement de valeurs dans les esprits d'une élite tunisienne prétendument intellectuelle est un symptôme véritablement préoccupant quant à la santé mentale de ces bipèdes nationaux »

هل من مرض عقليّ أخطر من اعتبار المثليّة "جائزة" وتعدّد الزّوجات "بشاعة"؟

بل إنّ مجرّد الحديث عن المثليّة خارج سبّ المثليّين واعتبارهم شواذّ يزلزلون عرش الرّحمان، هو لدى الكثيرين ضرب من ضروب الجنون الأكيد:

«enti mahboula»(انت مهبولة)

الجنون ثابت، والجماعة تتابع تطوّرات صحّتي النّفسيّة متابعة دقيقة:

«el chay zed 3lik hall nharin !!!»
(الشّيء زاد عليك ها النّهارين)

أمّا وقد ثبت المرض، فلم يبق إلاّ التّفكير في العلاج. والحقّ أنّ البعض لفرط حرصهم على سلامتي اقترحوا عليّ عيادة طبيب نفسيّ:

"مسكينة، والله نتأسف على حالتك، يلزم تمشي لطبيب نفسي يحللك الأزمة النفسية التي تعيش فيها"

ومنهم من اقترح توجيهي إلى طبيب مخصوص:

«9allek famma psychothérapeute behi ya 7ajja olfa ta nlawejlek 3ala noumrouh w nab3ethhoulek fi message»

(قال لك ثمّة طبيب نفسي باهي يا حاجّة ألفة، تو نلوّج لك على نومروه ونبعثهو لك في رسالة)

سخرية المتكلّم لا تخفى طبعا، ولكنّ السّؤال المطروح هو: إن كان من المفروض أنّ المرء لا يختار أن يكون مريضا، فكيف يكون المرض مجالا للذّمّ؟ إنّ أغلب الشّاتمين "متديّنون"، والمفروض وفقهم أنّ المرض ابتلاء من الله تعالى، فكيف يسخرون ممّن ابتلاه الله تعالى؟

بغضّ الطّرف عن أنّ المرض النّفسيّ أو العقليّ ما زالا في بلادنا سبّة وعارا، وبغضّ الطّرف عن أنّ كثيرين ما زالوا يخجلون من الإقرار بعيادتهم الطبيب النفسي، فإنّ الأهمّ هنا هو الوعي بأنّ الشّتم لا منطق أخلاقيّ له حتّى ممّن يدّعون أنّهم حماة الدّين والفضيلة.

ومع ذلك، فإنّ بعض الشّاتمين تذكّروا أنّه ليس على المريض حرج، فانبروا يدعون الله تعالى عسى يخفّف عنّي:

«RABi yfarej 3lik hedha chn9oul w belehi a3inin anti b samtiki inti w amthalik »

(ربّي يفرّج عليك هذا آش نقول، وبالله أعينيني بصمتك أنت وأمثالك)

واضح أنّه مهما تتغيّر وجوه الشّتم، فإنّ الصّمت يظلّ الغاية الأسمىوالمفتاح السّحري لحلّ كلّ المشاكل.

يا عجوز

أشار المعلّقون أكثر من مرّة إلى سنّي من منظور سلبيّ. فالتقدّم في السنّ هو أوّلا عائق إزاء تبدّل الآراء أو تغيّرها:

"حيرتها التي لا أظن أنها ستجد لها حلاّ وهي على أعتاب العقد الخامس من عمرها"

والتقدّم في السنّ مؤذن باقتراب الموت بما يفترض الاعتبار، ولكنّه، للأسف اعتبار غائب لدى المشتوم...بما يبرّر شتمه:

«rou7 choouf 7keya o5ra tkamel biha hal 10mn elli mazeloulek fi denia 5irelek»

(روح شوف حكاية أخرى تكمل بيها ها ال10 دقائق اللي ما زالوا لك في الدّنيا خير لك)

ولا ننسى أنّ التقدّم في السّن ذو دلالة التزاميّة سلبيّة في سياق "ثورة" وسمت ب"ثورة الشّباب":

«entaha 3ahduki w entaha w fat 3ahd el-dinosorat »

(انتهى عهدك وانتهى وفات عهد الدّيناصورات)

على أنّ كلّ التّبريرات التي تفسّر اعتبار التّقدّم في السنّ مجال شتم، تغيب أحيانا ليتصوّر المعلّقون أنّ الإشارة إلى السنّ في حدّ ذاتها، ودون أيّ مقتضى لها، تدخل في مجال الشّتيمة:

«Ana m'en mandhouri wbima2enem ndidet jadti najem ken n9olek rabi yhdik wla rabi ydik 5ater fil7altin bech nafra7lek»

(أنا من منظوري وبما إنك نديدة جدتي نجّم كان نقول لك ربّي يهديك وإلاّ ربّي يدّيك خاطر في الحالتين باش نفرح لك)

لم يوضّح صاحب التّعليق العلاقة بين السنّ ومضمون دعائه. فهل الدّعاء بالهداية أو بالموت متّصل بسنّ دون آخر؟ طبعا لا. وهذا يؤكّد ما ذهبنا إليه من أنّ المقصود من ذكر السّنّ "المتقدّم" إيذاء الآخر بما هو هدف أساسيّ من أهداف الشّتيمة. ربّما تُفهم هذه الشّتيمة في سياق "الشّبابويّة" الّتي تسم العالم الحديث والّتي تمجّد الصّبا وتستهجن الشّيخوخة. ومع ذلك، فإنّ نفس الشّاتمين يعتمدون مقياس السنّ نفسه من منظور مختلف:

«walahi chay ydha7ik ta7ki t9oul tofla 3morha 15 ans»

(والله شيء يضحّك تحكي تقول طفلة عمرها 15 سنة)

المشتومة عجوز سنّا بما هو مستهجن جماعيّا، ولكنّها مع ذلك لم تنجح حتّى في اكتساب بعض خصال الشّيخوخة نضجا وحكمة. وهكذا جمعت العيوب من طرفيها. فلا اتّصفت بحلاوة الصّبا ولا نفذت إلى حكمة الشّيخوخة. ولعلّها بذلك قابلة لأن تكون نموذجا معبّرا للمثل التّونسيّ: "الشّيب والعيب"[35].

[35]خلافا لما يتصوّره كثيرون، فمثل: "الشّيب والعيب" ليس استهجانا للشّيخوخة في ذاتها، وإنّما هو استهجان لاجتماع حكمة الشّيخوخة المفترضة مع العيب بما هو، وفق الحسّ الشّعبيّ، مفارقة منطقيّة.

ليلى الطّرابلسي وزين العابدين بن علي[36]

مـن الشّـتـائم المفضّـلـة لـبعض التّونسـيّين بعـد جـانفي 2011، الشّتيمة بالانتماء إلى التّجمّع:

"يا تجمّعيّة"

« klab r c d »

(كلاب التّجمّع الدّستوري الدّيموقراطيّ)[37]

ليس الانتماء إلـى حزب –لم أنتم إليه– شتيمة في حدّ ذاته إلاّ إذا تعلّقت بذلك الحزب دلالات التزاميّة سلبيّة كما هو الشّأن في تونس بعد الثّورة. وممّا يؤكّد أنّ هذه الشّتيمة سياقيّة اتّصـالها أحيانا بصفات أخرى لا علاقة مباشرة لها بالسّياسيّ شأن صفة السّفور:

"ما زال كن إنت بش تفتـي فالإسلام والعلماء هم خليفة الله فالأرض مش السّافرات وأقلام التجمع" (هكذا)

لا يمكـن أن يفهـم العلاقـةَ بـين التجمّـع والسّـفور سـوى تونسـيّين عايشـوا مرحلـة كـان فيهـا جـلّ معارضــي التّجمّـع وشـاتميه مـن

---

[36] زين العابدين بن علي رئيس الجمهوريّة التّونسيّة من 1987 إلى 2011، وليلى الطّرابلسي هي زوجته من سنة 1992.

[37] التّجمّع الدّستوريّ الدّيموقراطيّ كـان الحزب الحـاكم فـي تـونس مـن سـنة 1987 إلـى 2011 حيث تمّ حلّه.

الإسلاميّين وأتباعهم. وقد أسلفنا أهمّية مسألة الحجاب والسّفور من منظورهم.

وإذا جمعنا صفة التّجمّعية إلى صفة السّافرة فلا يمكن أن تكون النّتيجة إلاّ صفة الجارية. وهي صفة تواترت بمعنى الطّاعة والخضوع:

"ومن بعد إيجا أحكي على سيادك يا جارية ليلى الحجامة"

ولا تبتعد صفة الجارية هنا عن صفة القحبة في اتّخاذ كلتيهما للخدمة:

«ya k...... laila ya khamja ya 3ahra»

(يا ق.....ليلى يا خامجة يا عاهرة)

على أنّ عبارة "الجارية" قد تعود أحيانا لإفادة معناها الجنسيّ الأصليّ:

"عقلك ماخور وقلبك ماخور ألم تكوني جارية في ماخور الرّئاسة هههه"

وقد يظهر المعنى الجنسيّ صريحا، فيخرج من الإيحاء إلى التّعرّي:

"كلام على كلام=ألفة يوسف: "نعم بن علي أرجل من المرزوقي" حكاية الرّجولة هذه أنت أدرى بها بما أنّك جربت المخلوع وجربك وتلك عادة الجواري في التفريق بين هذا الفحل وذاك".

"متاع" بن علي، "متاع" ليلى

بعض الشّتائم تألّفت من مركّبات إضافيّة تضعني موضع المضاف إلى زين العابدين بن عليّ شأن:

«ya kawedit ben ali !!!!!!!!!»

(يا قوّادة بت عليّ)

أو

«kelba min kleb ben ali»

(كلبة من كلاب بن علي)

وكانت أغلب العبارات تضيفني إلى ليلى بن عليّ[38]، بعضها يذكّر مرّة أخرى بالشّهادة الجامعيّة في معرض تحقير:

"انك سافلة كيفهم يا دكتورة ليلى"

والبعض يعتبر الحقل الدّلالي للمعرفة والثّقافة والشّعر واحدا، فيعتبرني شاعرة رغم أنّي أجهل النّاس بالأبيات والقوافي:

"يا شاعرة ليلى...سيّب الدّين"

والبعض الآخر يعود إلى سمات الوسخ الّتي أسلفناها مضيفا إليها سمات الخضوع والخنوع:

"يا خامجة، يا لحاسة ليلى"

وأهمّ ما تفيده هذه المركّبات الإضافيّة هي الملكيّة، ملكيّة المشتوم من قبل أشخاص يمثّلون النّظام الحاكم "المخلوع". وهذه

---

[38] استند بعضهم في توهّم علاقتي الخاصّة بليلى بن علي إلى محاضرة ألقيتها في قصر قرطاج في جويلية 2007 حول المرأة وقيم الجمهوريّة بحضور ليلى بن علي.

الملكيّة الّتي تذكّر بصفة الجارية ممّا يوسم أحيانا باعتماد لفظ: "متاع":

"حارزة متاع ليلى دجين"

واللاّفت للانتباه أنّ التّعاليق في هذا المستوى تكتسب دلالتها السّلبيّة من السّياق التّاريخيّ. فلئن كان الوصف بالقحبة والكافرة والجاهلة ممّا هو سلبيّ في المجتمع التّونسيّ منذ زمن طويل، فإنّ الشّتم استنادا إلى علاقة مفترضة مع "بن علي" أو زوجته ممّا استحدث في 2011. فأصبحت كلمات "ليلى بن علي" و"زين العابدين بن علي" والتّجمّع في ذاتها تهمة تفسّر كلّ الشّرور:

«Tarbiyet tata leila zeyed dima tab9a hekka»

(تربية تاتا ليلى زايد ديما تبقى هكّ)

ومنطقيٌّ، والحال تلك، أن تجد تعاليق تجمع في الآن نفسه بين المرض والسّقوط الأخلاقيّ من جهة والعلاقة بالنّظام الحاكم قبل 2011 من جهة أخرى:

"بغض النظر عن الاختلاف في كونها كانت شلاكة للحجامة أو كانت جارية للمخلوع إلا أن الشيء المأكد من (كذا) أنها ساقطة خلقيا وأخلاقيا وتعتبر نفسها من النخبة المثقفة ومكانها الحقيقي في مستشفى الرازي لتتأكد من مداركها العقلية"

أساليب الشّتم

عرضنا في الفصول السّابقة لمضامين الشّتم ومجالاته، ونحاول في هذا الفصل الإشارة إلى بعض أساليب الشّتم. والحقّ أنّ التّمييز بين مضمون الشّتم وأساليبه هو تمييز متكلّف غرضه منهجيّ، ولنفس هذا الغرض المنهجيّ المتكلَّف، سينقسم بياننا أساليب الشّتم إلى خصائص اللّفظ الشّاتم أوّلا فالأساليب الإنشائيّة المعتمدة في الشّتائم ثانيا.

1- خصائص اللّفظ الشّاتم

1-1 الإطالة في الحروف

من المتواتر لدى الشّاتمين تكرار حروف بعض الكلمات. فكتب أحدهم:

«*kahhhba*»(قححححبة)

وكتب آخر:

«Tfouuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuu uuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuu uuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuu uuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuu uuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuu uuuuuuu »

(تفوو وووووووووووووو)

وكتب ثالث:

«tfoooooh 3lik ya bent la7ram»

(تفووووه عليك يا بنت الحرام)

وكتب رابع:

«TFOUHHHHHHHHHHHHHHHHHHHHHHHHH HHHHHHHHHHHHHHHHHHH»

(تفوههه)

ولئن كرّر المعلّقان الأوّل والثّاني حركة الضّمّ وكرّر المعلّق الثّالث الحرف الأخير، فإنّ كليهما أراد أن يؤكّد فعل البصاق عسى إطالة الحرف والحركة تجعل الفعل يخرج من الإطار الافتراضيّ إلى المجال الفعليّ. ولعلّ تكرار الدّالّ كفيل بتحقّق المدلول في نوع من التّعويذة السّحريّة النّافذة.

ولئن كانت إطالة الحروف السّابقة مفيدة في ذاتها بغضّ الطّرف عن طبيعة الحرف الصّوتيّة، فإنّ نوع الحرف المتكرّر قد يفيد أحيانا بعض المعاني. من ذلك تكرار البعض لحرف الفاء دلالة على التّأفّف من ذاتي ومن كتاباتي في نوع من المحاكاة الصّوتيّة:

«ffffffffffffffffffffffffffffff mamstek w maredhlek»

(افففففففففففففففففففففففففففففف ما أمصتك وما أرذلك)

ومن وجوه المحاكاة الصّوتيّة أيضا، تواتر تكرار حروف الهاء متتالية لتفيد الضّحك أو بصفة أدقّ لتفيد الاستهزاء:

«hhhhhhhhhhhhhhhhhhhhhhhwalh miskina»

(ههههههههههههههههههههههههههههه والله مسكينة)

ولافت للانتباه كثرة التّعاليق الّتي يفتتحها أصحابها أو يردفونها ب"ههه" الضّحك:

"وأنا لا يرضيني الغباء ولا الانبطاح للأجنبيّ... هههههههههه"

وقد يكون في ذلك محاولة لا واعية لتخفيف حدّة الشّتيمة وجدّيتها باكتساب "أنصار" أكثر، أليس أنّ الضّحك جامع بين النّاس؟

1-2 الأخطاء اللّغويّة

من خصائص الشّبكة الافتراضيّة أنّها مفتوحة للجميع وباللغات كلّها. ولئن استعمل البعض العامّية بما لم تُضبط قواعده النّحويّة بعد، فإنّ البعض الآخر يستعمل اللّغتين العربيّة والفرنسيّة. وقد لفتت انتباهنا كثرةُ الأخطاء اللّغويّة في التّعاليق، ولعلّنا نقتصر على عرض بعض الأخطاء الدّالّة فحسب:

+ لا تمييز بين الظّاء والضّاد:

التّفريقُ بين الظّاء والضّاد سماعيّ ما في ذلك شكّ، وغيابُ قاعدة قياسيّة يجعل هذا التّفريق عسيرا. ولكنّ اللّطيف أنّ بعض المعلّقين ممّن يدّعون التّديّن يخطئون في كتابة مفردات هي من المعجم الدّينيّ، وهذا شأن كلمة: "رويبظة" الّتي يكتبها البعض بالظّاء (بدل الضّاد) عسى الألف تأخذ شكل عصا تضرب على أيدي العلمانيّين المخرّبين:

"***لعنـة الله علـيكم يـا علمـانيون اتركـوا الإسـلام يحكـم مـرة واحـدة واحكموا بعد ذلك يا كلاب يا رويبظة هذا الزمان***" (هكذا)

ومن ألطف أخطاء "حماة الدّين" اعتمادهم مرّات عبارة:

"***موتوا بغيضكم***" (هكذا)

المفروض أنّ الكفّار العلمانيّين هم من سيموتون غيظا من انتشار التّديّن، ونسي "المتديّنون" الشّاتمون أنّ العبارة في الأصل قرآنيّة في قوله تعالى: "...وإذا لقوكم قالوا آمنّا وإذا خلوا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إنّ الله عليم بذات الصّدور" (آل عمران3، 119). نسي الشّاتمون أنّهم لو قرؤوا الآية في القرآن لعلموا أنّ كلمة "غيظ" تُكتب بالظّاء وليس بالضّاد كما فعلوا.

+ "إليكي"/ "أكرهكي"/"أنتي" أو تشديد وسم المؤنّث:

اللّغة العربيّة تسم المؤنّث بأساليب شتّى منها الحَرْفيّة شأن اعتماد التّاء في قولك: "كافرة" مقابل "كافر"، ومنها الحركيّة شأن اعتماد كسر الضّمير مع المخاطَب الأنثى وفتحه مع المخاطَب الذّكر. فنقول: "أحبّكِ" لامرأة و"أحبّكَ" لرجل.

على أنّ أغلب الشّتائم المخاطبة لامرأة تُحوّل حركة الكسرة القصيرة إلى كسرة طويلة بما يتجسّم رسما في ظهور "الياء" كتابة:

"حتى انكي مشجعة على زواج المتعة"

"الثّقافة منكي براء"

"وانتـي يهزك ربي"

ربّما أراد المعلّقون وسم الأنثويّ كتابة حتّى يُرى التّمييز الفعليّ بـين المـذكّر والمؤنّـث وحتّـى يـتلاءم رسـم الكلمـات مـع قـول أحدهم:

"مفماش مساواة بين الراجل والمراة وإلا علاش ربي مخلقناش الكل رجال والا الكل نساء"

إذا كان الله تعالى لم يخلقنا جميعا نساء أو جميعا رجالا، فأكيد أنّه لا يمكن أن يخاطب الرّجال والنّساء بوسم لفظيّ متشابه.

+ قلب الحروف وتغييرها:

لَعْنُ القحبة الجاهلة الكافرة هو فرضُ كفاية قام بـه الشّاتمون، ولكنّهم كثيرا ما بدّلوا جذر "ل،ع،ن" إلى "ن،ع،ل":

«kadaba kafira na3alaki allah»

(كذّابة كافرة نعلك الله)

"نـعلبوك"

هذا الإبـدال شـائع مشـافهة لتقـارب المخـارج بـين الـلام والنـون. ولعـلّ اعتمـاده كتابـة يشـير إلـى نشـدان الشّـاتم الاقتـراب مـن المشتوم لا حبّا، وإنّما ليكون الأذى أكبر.

+ المبالغة في الصّواب:

المشتغلون على الأخطاء اللّغويّة يعرفون أنّ من الأخطاء الشّائعة ما يقوم على سعي مبالغ فيه إلى الصّواب. وهو ما يُسمّى بالفرنسيّة بالتّصويب الإفراطيّ hypercorrection.

ومن ألطف التّعاليق المجسّمة للإفراط في التّصويب قول أحدهم:

"يا قحباء مهـ□"

هذا اللّفظ المبتدع من المفروض أنّه مؤنّث "أقحب" كقولك: "أبيض" و"بيضاء".

ومن أمثلة التّصويب الإفراطيّ أيضا قول أحدهم إذ أشرت إلى سقراط:

«Tu n'existes pas pour Socrates»

لا أعرف هل خلط المتكلّم بين سقراط الفيلسوف و"سقراطس"[39] لاعب كرة القدم البرازيليّ، لكن الأكيد أنّ وجود ال"s" آخر الكلمة دليل عناية وتدقيق ومجهود واضح هدفه اجتناب الخطإ.

<u>1-3 ما قلّ ودلّ</u>

[39] Socrates هو لاعب كرة قدم برازيليّ شهير في الثّمانينات.

عدد لا بأس به من الشّتائم موجز، بعضها يكتفي بال"يا" متلوّة بالصّفة الشّاتمة مع لعن أو بصاق لغويّ، والبعض الآخر يبدأ باللّفظ "تي" متلوّا بفعل أمر، أو بالفعل "برّ"[40].

فمن الصّنف الأوّل ما أسلفنا بعضه شأن:

"يا جاهلة"، "يا قحبة يا كافرة تفوه عليك"، "تفوه عليك يا عاهرة"، "ينعن بوك يا قحبة"... وهذا الضّرب من الأمثلة يكاد لا يحصى.

إنّ ال"يا" المعتمدة هنا هي ياء تخصيص، فكأنّ ذاتك كلّها تتلخّص في تلك الصّفة التي تستغرقك. وربّما نجد لهذه ال"يا" نظيرا في الشّتم باللغة الفرنسيّة في عبارة «espèce de... »، فمثلما تخصّص العبارةُ "يا قحبة" ذاتك في أنّك قحبة، فإنّ العبارة الفرنسيّة تؤكّد النّوع الّذي تنتمي إليه بصفته مجموعة الانتماء الوحيدة[41].

في كلمتين إذن، تسمح هذه الشّتيمة الشّائعة بإقامة تماه بين الذّات المشتومة والصّفة السّلبيّة، حتّى تذوب الذّات في الصّفة فتصبح هي.

[40] عادة ما يسبق اللّفظ: "تي" في العامّيّة التّونسيّة فعل الأمر ليؤكّده. ويكاد استعماله يقتصر على الدلالة الالتزامية السّلبيّة: "تي برّ زمّر"، "تي سيّب صالح"، "تي فكّ عليّ" إلخ...

[41] اللّطيف أنّه حتى إن كانت الصّفة الواردة بعد ال"يا" ذات دلالة التزاميّة إيجابيّة، فإنّ الكلام يكون عادة ساخرا: "صحّيتك يا ذكيّة"...

على أنّ الشّاتم لا يسعى فقط إلى الوصف وإنّما إلى تغيير الواقع، لذلك نجد ممّا قلّ ودلّ شتائم هي جمل قصيرة آمرة، ومسبوقة ب"تي" أو "برّ" مِنْ ضرب: ***تي اسكت يا رويبضة،"برّ موت"، "برّ استر روحك"...***

إنّ هذه الجمل الموجزة تختصر في كلمات ما يجب أن يكون في مقابل ما هو كائن. فكأنّ الشّتم في هذا المستوى تأكيد خطإ المشتوم وخروجه عن الصّواب اللاّزم.

1-4 المعجم الجنسيّ

اعتماد المعجم الجنسيّ في الشّتم شائع في المجتمعات جلّها شأنه في ذلك شأن المعجم الدّينيّ ومعجم الفضلات الجسديّة.

وقد شمل اعتماد المعجم الجنسيّ لدى الشّاتمين الإشارة إلى الفعل الجنسيّ وإلى الأعضاء الجنسيّة. ويحيل المعجم الجنسيّ في مجال الشّتم على دلالات متعدّدة منها:

1-4-1 الفعل الجنسيّ بين العدوان الرّمزيّ والتّحقير

كثيرا ما توضع الأمّ في موضع المفعول به جنسيّا بما هو قمّة التّحقير كما أسلفنا. ويتحقّق تأثير الشّتيمة المفترض من الجمع

بين رفعة الأمّ في ثقافتنا من جهة[42] وتحقيرها بتحويلها موضوع جنسيّا من جهة أخرى:

«bellahi ro7 nik omek»(بالله روح نيك أمّك)

"برّي نيك أمّك يا قحبة"

وبمناسبة الشّتيمة، تتحوّل شجرة العائلة الذّكوريّة إلى شجرة عائلة أموميّة، فترتفع إلى أمّ الأمّ:

«nik omm ommik el kahba»(نيك أمّ أمّك القحبة)

وأحيانا، يتظافر على تأكيد أنّك "قحبة" جينيّا، توجيه عدوان "النّيك" لك مباشرة بعد تشريفه الأسرة كلّها:

«Fuck you»

وقد لا تدلّ هذه الشّتيمة على إتقان الشّاتمين للإنجليزيّة بقدر ما تدلّ على مشاهدتهم الأفلام الأمريكيّة المدبلجة الّتي يتواتر فيها اعتماد هذه الشّتيمة.

على أنّ أكثر الشّتائم شيوعا لدى المعلّقين الافتراضيّين ولدى التّونسيين عموما هي شتيمة:

"برّ نيك"

---

[42] مظاهر رفعة الأمّ قائمة في ثقافات متعدّدة. وقد نجد هذه الشّتيمة نفسها في لغات أخرى: nique ta mère على أن أصل العبارة عربيّ لأنّ لفظ "نيك" لم يظهر في المعاجم الفرنسيّة إلاّ سنة 1890م.

وهـو مـا يفيـد حرفيّـا أمـر الشّـاتم المشـتوم بممارسـة الجـنس. ويـختلـف المعنـى الالتزامـيّ لهـذا الأمـر عـن وضـع الأمّ موضـع المفعول الجنسيّ. ذلك أنّ نكاح الأمّهات اللّفظيّ اعتداء عليهنّ هدفه الاعتداء على أبنائهنّ. أمّا الأمر بالنّكاح، فهو ضرب من ضـروب إقرار الشّـاتم بتفاهة المشـتوم. فالقصـد مـن عبـارة "بـرّ نيّك" هو أساسا دعوة المشتوم إلى التّلهّي بفعل تافه بدل إزعاج الشّاتم بوجوده أو بقوله. فكأنّ النّكاح هو فعل من لا فعل لـه. وهذا ما بيّنته شتائم متعدّدة شأن:

«ken temchi tnayek 5ir»(كان تمشي تنيّك خير)

إنّ اسـتعمال أفعل التّفضـيل "خيـر" يفيد احتقـار كـلّ مـا يفعلـه المشتوم حتّى إنّ النّكاح التّافه أفضل من كلام المشتوم وفعله، ولعلّه الإلهاء الأمثل له عن إزعاج الآخرين:

«bellehi bari nayki»(بالله برّي نيّكي)

وقد تفيـد هـذه العبـارة أيضـا دعـاء بإلحـاق الأذى بالمشـتوم، إذ تسمح العاميّة التّونسيّة باعتماد عبارة: "مشى ينيّك" بمعنى أنّه كان ضحيّة مشاكل ومصائب آذته شديد الأذى.

<u>1-4-2 حضور الأعضاء الجنسيّة بين الأنثويّ والذّكوريّ</u>

لا تحضـر الأعضـاء الجنسـيّة الأنثويّـة فـي معـرض الشّـتم الافتراضيّ إلاّ في علاقة بالأمّ. فكثيرا ما اعتُمد الشتم ب:

«yn3an zabour ommek!»(يلعن زبّور أمّك)

لا نعرف إذا كان الشّاتمون يعرفون لوحة كوربي "أصل العالم"[43]، لكن أكيد أنّ اللّعن هنا لا يطال عضو الأمّ الجنسيّ في بعده المرجعيّ. وإنّما نحن في معرض كناية يشير فيها العضو الأنثويّ إلى أصل الولادة، ويفيد من ثمّ اعتداء لفظيّا على المشتوم في أسّ وجوده المادّي ذاته.

وممّا يؤكّد أنّ عضو الأمّ يحيل على أصل الأشياء اعتماده في سياقات أخرى لا علاقة لها البتّة بالمشتوم:

«Ou inti ech koun sahlek 3ala zabouroum noumrou sabatek »

(وإنت شكون سألك على زبّور أمّ نومرو صبّاطك)

لئن كانت عبارة "شكون سألك على نومرو صبّاطك" أو "من طلب منك مقاس حذائك" تفيد تذكير شخص بأنّه يتدخّل فيما لا يعنيه، وهذا يتلاءم مع ما أسلفناه من اعتبار مشاركة المرأة/القحبة في الشّأن العامّ تدخّلا فيما من المفروض ألاّ تتدخّل فيه، فإنّ المجمع عليه أنّ "رقم الحذاء" لا عضوٌ جنسيّ لأمّه. وإنّما المقصود من ذكر عضو الأمّ النّفاذ بالشّتيمة إلى أصل المواضيع جميعها.

---

[43] كوربي هو رسّام ونحّات فرنسيّ أنجز سنة 1866 لوحة زيتيّة تحمل عنوان: أصل العالم (l'origine du monde)، وتمثّل عضوا جنسيّا أنثويا.

العضو الأنثويّ إذن متّصل بالأمّ بصفتها أصلا. وهذا يتّسق مع المعنى اللّغوي المجازيّ لكلمة "أمّ" المفيدة أصل الأشياء في قولك: "أمّهات الكتب" أو "ضربه على أمّ رأسه". ومن هنا فعضو الأمّ مدخل لشتم الشّخص في أصله، وليس المقصود منه إهانة الأمّ مثلما هو شأن الشّتم ب"نيك الأمّهات".

ويبقى أن ننظر الآن في دلالة اعتماد العضو الذّكوري من خلال المعجم الجنسيّ الشّاتم. فقد أسلفنا أنّ النّكاح لدى المعلّقين يقوم على مفارقة اعتباره فعلا عدوانيّا مؤثّرا من جهة وفعلا تافها مُلهيا من جهة أخرى، وإنّنا نجد هذه المفارقة ذاتها ماثلة أمامنا عند اعتماد العضو الذّكوريّ في الشّتم.

فالعضو الذّكوريّ ذو دلالة إيجابيّة عموما إذا كان سلاحا يُخضع به المشتوم ويؤكّد أنّه ذو مرتبة دنيا، وهذا ما يضمره القول المتكرّر:

"يعطيك عصبة"

إنّ هذه الشّتيمة شائعة في المجتمع. فال"عصبة" هنا هي سلاح إخضاع وإذلال. وقد أسلفنا أنّ الفعل الجنسيّ ليس فعل متعة

مشتركة، ولكنّه فعل عدوانيّ بل "حربيّ" أساسه الفاعل المنتصر والمفعول المحتقر الّذي يجسّمه المشتوم[44].

ودليل اعتماد "العصبة" سلاحا أنّ الشّاتمين يُخرجون العضو من مجال الاعتداء عبر الفعل الجنسيّ إلى مجال الاعتداء المادّي خارج الممارسة الجنسيّة. فالعضو الجنسيّ تجوّزا ومخيالا كأنّه قذيفة أو حجر على الرّأس:

«ya3tik 3asba 3la rasik wras zok ommik el kahba ya olfa youssef »

(يعطيك عصبة على راسك وراس زكّ أمّك القحبة يا ألفة يوسف)

وقد يكون هذا العضو حجرا على الوجه أو على العين:

«Zib ala wajehak ya wajeh elouh»

(زبّ على وجهك يا وجه اللّوح)

"يعطيك نم على عينك إنت والصّفحة متاعك يا هاملة"

والثّابت أنّ العضو الذّكوريّ هنا ذو مقام رفيع سواء في بعده المجازيّ سلاحا أو في بعده الفعليّ المرجعيّ:

"عصبة...خسارة فيك العصبة"

[44] بعد هزيمة فرق رياضيّة، كثيرا ما ينشر "الفايسبوكيّون" التّونسيّون صورا تمثّل المنتصر رجلا جالسا على الفراش مع امرأة تلبس فستان الزّفاف. ويكون الرّجل حاملا لرموز الفريق المنتصر والمرأة حاملة لرموز الفريق المنهزم.

على أنّ نفس العضو الجنسيّ ذا المقام الرّفيع، قد يُعتمد أحيانا لتحقير المشتوم لا بصفة العضو سلاحا يُخضِع، وإنّما بصفته عضوا ذا وظيفة مستهجنة اجتماعيّا:

«hal malhet mta3 zebi»(ها الملهط متاع زبّي)

أو

«ya olfa youssef olfa zebbi»(يا ألفة يوسف زبّي)

وتتأكّد المفارقة المعياريّة في مقاربة العضو الذّكوريّ، بين إعلاء من شأنه من جهة واستهجان له من جهة أخرى، من خلال التّعليق المتكرّر باعتماد عبارة "هاو زبّي":

« tfouuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuu uuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuu uuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuu uuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuu uuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuuh haw zebi »

(تفووه هاو زبّي)

"هاو زبّي" تتراوح بين معنيين: الأوّل هو الاعتزاز بالعضو الذّكوريّ بما ترجمته: "هذا عضوي تاج رأسي موجودا قائما، فماذا أنت فاعلة لي؟"، والثّاني هو إثبات تفاهة ما يليق بك بصفتك مشتومة أقصى ما يمكن أن يُقدّم لها هو عضو جنسيّ يحيل على فعل مستهجن مخجل اجتماعيّا[45].

---

[45]لا نجد في العامّية التّونسيّة عبارة: "هاو زبّوري".

3-4-1 حماة الدّين بسلاح المعجم الجنسيّ

من أطرف ما حملته شتائم النّات مدافعون عن الدّين يعتمدون صنوفا شتّى من ألفاظ المعجم الجنسيّ الشّاتم:

«raki tnayki ...ab3adi zeb islam yn3al dinrabak maybuna 3asba 3la rasek hahhahh»

(راكي تنيّكي...ابعدي زبّ الإسلام ينعل دين ربّك ميبونة. عصبة على راسك هاها)

ولئن أسند هذا التّعليق إلى الدّين عضوا ذكوريّا مؤكّدا ضرورة أن أبتعد عن جوهر الدّين، فإنّ تعليقا آخر يسند إلى قراءتي للدّين عضوا أنثويّا:

"هذا في دين طيز أمك يا سيدتي"

وفي الحالتين، فإنّ الشّتم لا يتّجه إلى الدّين وإنّما إلى قارئة الدّين، بل إنّ دائرة المشتومين قد تتّسع أحيانا، حتّى إنّ "تهجّمي" المفترض على الإسلام واتّباع بعضهم لي تجعلنا كلّنا مستأهلين نكاحا افتراضيّا جماعيّا لأمّهاتنا:

«azebi hadhi mochkletha m3a leslam wnes mechia m3aha fesseka w9ayed horia nik omkom elkol»

(آزبّي هذي مشكلتها مع الإسلام والناس ماشية معاها، فاسقة، وقيّد حرّية، نيك أمّكم الكلّ)

وقد يستغرب البعض الجمع بين الدّفاع عن الدّين والتّديّن من جهة واستعمال ما يوسم اجتماعيّا ب"ألفاظ بذيئة" من جهة

أخرى. ولا أعتقد أنّ مردّ هذا الجمع فلسفة إطيقيّة تميّز بين الدّين بصفته جوهرا أخلاقيّا والكلام بصفته ألفاظا مستقلّة على الواقع. وإنّما يبدو أنّ بعض الشّاتمين أنفسهم يستهجنون "الكلام البذيء" ولكنّهم يجيزونه سلاحا في محاربة المارقين عن الدّين وفي محاربة الآخر عموما. فمثلما أنّ الدّين في تصوّرهم "أجاز" للمسلمين سبي نساء "الآخر" في الحروب، فعاديّ أن يجوز بالنّسبة إلى مسلمي اليوم شتمُ من يعتبرونهم مارقين عن الدّين خارجين عن الملّة:

«ya la2ikiya ya monaf9a el moslmin achrif minek wmanitcharfouch bik tfouh 3la zok ommik»

(يا لائكيّة يا منافقة، المسلمين أشرف منّك وما نتشرّفوش بيك تفوه على زكّ أمّك)

5-1 المعجم الحيوانيّ

عمد الشّاتمون إلى المعجم الحيوانيّ، فتعدّدت الأوصاف وإن كانت صفة ***"يا بهيمة"*** على رأسها. وقد نوّع الشّاتمون من المجال الحيوانيّ فأحالوا على الأبقار والقردة والكلاب بعد

الأحمرة درءا للغيرة بين الحيوان. فقرأتُ: ***"يا بقرة..."، "يا قردة..."،"يا كلبة.."***

والحقُّ أنّ كلّ حيوان يحيل رمزيّا على صفة سلبيّة. فصفة الحمار تفيد الجهل، وصفة البقرة تفيد ثقل الفهم، وصفة القردة تفيد بشاعة الخلقة وصفة الكلب تفيد النّجاسة.

وهذه الصّفات التزاميّة لا علاقة لها بالضّرورة بالمعاني المرجعيّة، على أنّها جميعها منغرسة في المخيال الثّقافي والاجتماعيّ، وهي متغيّرة وفق السّياقات والمقامات[46]، ولكنّها في كلّ الأحوال تقتضي أنّ الإنسان أفضل من الحيوان. وهو تمثّل شائع في الثّقافة التّونسيّة، فجمعيّة الرّفق بالحيوان أغلقت أبوابها، والمعتدي على الحيوان لا يُعاقب.

1-6 معجم الإفرازات الجسديّة

أكثر الإفرازات الجسديّة استعمالا في الشّتائم كانت البصاق. فتكرّرت عبارة:«*tfouu 3lik*» مرّات، وبرسم مختلف كما رأينا.

[46]من اللّطيف أنّ اعتماد المعجم الحيوانيّ في الشّتم شاع على الفايسبوك التّونسيّ، ولكنّ الشّتم باعتماد كلمة "جرذان" مثلا خُصّص لمساندي الإرهاب. واستند ذلك إلى خطاب للقذافي أوائل 2011، اعتمد فيه هذا الوصف للإرهابيّين.

ولعلّها عبارة تختصر في كلمات قليلة ما يرغب الشّاتم في التّعبير عنه:

«tfih 3lik ya olfa c tou merci»

البصاق على الآخر تحقير وإهانة في ثقافات متعدّدة لا تشذّ عنها ثقافتنا. ويساند البصاقَ البولُ ممثّلا بالعربية وبالفرنسيّة:

«BOUL 3lik ya OLFA»

أو

«je n'hésiterai pas une seconde à te picer deçus» (sic)

ربّما يؤكّد البول على المشتوم نجاستَه الجوهريّة أو لعلّه ينشئ لديه نجاسة، ويذكّر في كل الأحوال برفعة الشّاتم بالنّسبة إلى المشتوم. أليس الشّاتم هو البائل؟

2-أساليب الشّتم الإنشائيّة

<u>2-1 التّراكم والتّفضيل</u>

تعدّد بعض التّعاليق صفات كثيرة ومتتالية للمشتوم:

«tfouh 3lik ya 5amja ya malhit ya nakira ya la2ikiya ya monaf9a»

(تفوه عليك يا خامجة يا ملهط يا ناكرة يا لائيكية يا منافقة)

أو

"قحبة وبهيمة و مصتكة وجربوعة ومسخَة ذهنيا ومعاقة أخلاقيا"

أو

«ya 5emja w tefha w kelba min kleb benali»

(يا خامجة وتافهة وكلبة من كلاب بن علي)

لا يعنينا في هذا المقام مضمون الصّفات المذكورة، فهي في كلّ الأحوال ذات دلالة اجتماعيّة سلبيّة في منظور الشّاتم. ولكن يعنينا تراكم هذه الصّفات وتتاليها وتعدادها بما قد يحقّق تفريجا عن غيظ الشّاتم من جهة وبما قد يحمل المتقبّل على تصديقه. فكأنّ التّعداد ينشئ ضربا من الإشباع النّفسيّ يجعل كذب الشّاتم مستبعدا. ففي كلّ الأحوال، يعسر أن تكون الصّفات جميعها خاطئة: إنّ "ألفة" إن لم تكن قحبة فهي على الأقلّ بهيمة وإن لم تكن بهيمة فهي على الأقلّ تافهة أو خامجة إلخ...

وإذا كان أسلوب التّعداد يفيد التّأكيد عبر تكثيف الدّوالّ، فإنّ استعمال أفعل التّفضيل يفيد التّأكيد عبر المقارنة الّتي تقدّم المشتوم بصفته الأفضل في الأسوء. وبغياب المفضّل عليه، "يرتقي" المشتوم إلى تميّز سلبيّ يكاد يبلغ الإطلاق:

"أكبر قحبة"

"ههههههه□ والله ما رايت اغبى امرأة مثلك"

"أبهم ألفة"

2-2 السّخريّة

أسلفنا الإشارة إلى استنكار الشّاتمين لمكانة علميّة مفترضة للمشتوم ولاعتراف غير مستأهل في نظرهم[47]. والسّخرية، بما هي استهزاء بالمكانة والاعتراف المفترضين، من أفضل أساليب التّحقير.

لقد كان تغيير الاسم أحد مظاهر السّخرية، فاتّخذ أشكالا شتّى إذ وُسمت ب"*لفتة*" يوسف و"*عفشة*" يوسف، واستعمل تارة لفظ "*علفة*":

"***هذه العاهرة المسماة علفة يوسف تساند نداء الكفّار للباجي قائد الأصفار***"

وطورا عُمد إلى كلمة "دفلة":

"***مما يجعل الدكتورة دفلة يوسف مفكرة (حسب بعض الحشرات البشرية) هو غياب الساحة من الإسلاميين***"

ولئن قام تغيير اسم "ألفة" إلى "لفتة" و"عفشة" و"علفة" على إبدال صوتيّ يضفي على الاسم معنى مستهجنا، فإنّ بعض الشّتائم تعتبر "ألفة" اسما غير ملائم للشّخص، ولعلّه اسم يفيد ضدّه:

"***ما امسطك يا ألفة، حقهم سموك فُرقة***"

---

[47]انظر صص52-54.

لقد أشار المحلّل النّفسيّ فاس(Vasse) إلى أنّ تبديل اسم شخص بلا احترام وبعيدا عن الحميميّة اللّطيفة نوع من أنواع الاعتداء على كينونة الشّخص ذاتها[48]. على أنّي أعتقد أنّ هدف الشّاتمين من وضع الاسم مجال تهكّم في هذا السّياق، ليس "ألفة" في شخصها، ولكن ألفة بما هي معبّرة عن معرفة مفترضة، أو تأثير في الآخر مفترض. ولذلك نجد تغيير الكلمات نفسه في علاقة بهذه المعرفة أو السّلطة المعرفيّة المفترضة، فيتحوّل لفظ نخبة إلى "نقبة" ولفظ مثقّفة إلى "مسقفة":

"هذه هي النقبة المسقفة في بلادنا"

ويتحوّل لقب "دكتورة" إلى "تركتورة":

"التركتورة تخمم فقط في الجنس ياخي تركتورة جنس"

أمّا البحث المعرفيّ العلميّ، فيتحوّل بحثا مادّيّا...وهو طبعا، وفق جمهور الشّاتمين، لا يمكن إلاّ أن يكون بحثا عن زوج، ألم نر أنّ المرأة النّموذج متزوّجة ضرورة؟[49]:

"هههههههههههههههههههههههه ـــــــ باحثـــة عــــن

ماذا؟؟؟؟ههههههههه ـــــــ باحثـــة عــــن

---

[48] Denis Vasse, Inceste et jalousie, Paris, Seuil 1995, pp-85-86.

[49] انظر صص38-39.

عـريس؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ تعيـا وانــت تقـبض يـا نباشـة المزابل"

إنّ مصـيبة "النّخبـة النّكبـة" تكمـن فـي توهّمهـا أنّهـا تفهـم وأنّهـا تعرف في حين أنّها، في واقع الأمر، لا تفهم شيئا:

"الـدكتورة تحكــي فــي الـدين والثقافـة والأحـزاب وتـوة تحكــي فــي السياسة الخارجية وحقوق الانسان ... علـى قريب انشالله ماش نشوفها في الأحد الرياضي وبالمكشوف تعمل في تحليل فني متـاع مباراة تونس وغانا ههه"

وإذ أسـلفنا أنّ الجماعـة لا تميّـز بـين التّفكيـر فـي الـدّين وبـين الإفتـاء، فعـاديّ أن نجـدهم يسـخرون منلقـب "مفتيـة" يسند وفـق أوهامهم إلى امرأة:

"تقول لك أيتها الرويبضة: ألم يكونوا ينادونك زمن المخلوع بحضرة المفتــي؟"

إنّ السّخرية في هذا المقام ليست من شهادة مزيّفة أو من لقب علميّ غير مستحقّ، وإنّما من "لقب دينـيّ" لا يمكن أن تكتسبه امـرأة، إنّهـا سـخرية أسّـها ثبـوت الأدوار "الجندريّـة" وحـدودها الصّارمة لا تقبل تحويرا ولا تبديلا. ومن هنا فإنّ أنّ من يطرح السّؤال التّالي:

«w chnowa ray l eslem ya chi5a ?»

(وآشنوّ راي الإسلام يا شيخة؟)

لا ينتظر طبعا جوابا، وإنّما هو يريد أنيبيّن غرابة أن تكون "امرأة" مدّعية معرفة في المجال الدّينيّ. بل إنّ أحدهم يفترض أنّ المرأة التونسية تريد، ويا للهول، اقتحام إمامة صلاة الجمعة. وهو لا يعرف طبعا أن لا نصّ يمنع ذلك وأنّ عبر التاريخ قديمه وحديثه نساء مسلمات أمّمن صلاة الجمعة:

الشيخ الف يوسف هههههه المراء تونسي تريد اقتحام المنبر المسجد لى خطاب الجمعة والله كثرتوها يا نساء تونس بعد ثورا مراء تونسي ماشي منعرج هدم اخلاق شعب تونسي"(هكذا)

2-3 القَسَم

تكرّر القسم بالله مرّات عديدة مثبتا الأوصاف السّلبيّة التي سبق ذكرها شأن المرض:

«wellahi mridha wm9wda fi mo5ek inti !!!!»

(والله مريضة ومقوّدة في مخّك إنت)

أو القحب:

«walah inti akbar k......a fi tarikh touness»

(والله إنت أكبر ق..... في تاريخ تونس)

أو الجهل:

«wallah ma jehla ken enti ya ...»

(والله ما جاهلة كان إنت يا...)

وقد يعتمد القسم أحيانا عند قراءة "للشّأن العامّ"، ولعلّ جلال الشّأن العامّ وعمق التّحليل يفترضان اعتماد القسم أوّل التّعليق وآخره:

«Wallah manéktou tounés kén énti w amthélék wallah»

(والله ما نكتو تونس كان إنت وأمثالك والله)

وفي كلّ الأحوال، فإنّ القسم يقع من الكلام موقعا مزدوجا بين إثبات وثوقيّة الباثّ المتأكّد من قبح صفات المشتومة من جهة وبين شكّه في تصديق المتقبّل له بما يجعله يستعين بالقسم تأكيدا.

2-4 الدّعاء

بعد أن أشبعني الجماعة سبّا وشتما، فطنوا إلى أنّي ما زلت أتكلّم، ما زلت أكتب عبر "الفايسبوك":

«ya olfa ye5i nhar kmel cheda lf »

(يا ألفة ياخي نهار كامل شادّة الفايسبوك)

وبغضّ الطّرف عن خلط المعلّقين بين زمن الكتابة الفايسبوكيّة الّذي قد لا يتجاوز دقائق، وزمن القراءة الّذي قد يمتدّ أيّاما، فالثّابت أنّ الشّتائم لم تقض عليّ.

ما الحلّ إذن لكي أختفي؟ الحلّ المنطقيّ هو أن أموت. لذلك تجد البعض يتّجه إلى أصحاب السّلطة آنذاك داعين إياهم للقضاء عليّ وأمثالي:

"نطلب من المنصف المرزوقي يرجع ايامات بنعلي و اجزر دين اماتكم القحبة كان بنعلي حطهم في السجون انتم يعدمكم"

للأسف لم يستجب لهم المرزوقي، وتذكّروا عندها أنّ الأفضل هو أن يتوجّهوا بالدّعاء إلى الله تعالى عساه يرسل إليّ ملك الموت في أقرب الآجال. فكان هذا الدّعاء عامّا أحيانا:

"الله يهلكك"

أو

"وإنتي يهزك ربي"

وكان الدّعاء في أحيان أخرى دقيقا يضبط تاريخ الوفاة المرجوّ:

"برّة لا تباركلك يا قحبة إن شاء الله عام 2012 يكون أتعس وآخر عام في حياتك"

المشكل أنّه رغم تواتر الدّعوات فإنّ الله تعالى لم يستجب لهم بعد، وهذا مزعجٌ، مزعج إلى درجة أنّ أحدهم يتصوّر أنّ الله تعالى "أخطأ" إذ قبض روح إبراهيم الفقيه وترك روحي الضّالّة تفسد في الأرض:

«j'aurais bien aimer entendre dire que t'est morte à la place de IBRAHIM EL FEKIH»[50](sic)

وبعد أن فقد الجماعة أملهم في تدخّل الله تعالى مباشرة، طلبوا منّي، أنا العبد الفقير، أن أكون أداةً لله عزّ وجلّ في تحقيق أحلامهم...طلب منّي الجماعة التّدخّل شخصيّا لحلّ المشكل. ورغم أنّهم لا يطيقون بورقيبة ولا سياسة المراحل التي كان يعتمدها، فإنّهم، وبمنطق أنّ الضّرورات تبيح المحظورات، اعتمدوا نفس هذه السّياسة التّدريجية. ففي مرحلة أولى يجب أن أقتنع أنّ الموت أفضل لي من الحياة:

"أنت أحرى بك أن تموتي"

وأحسن طرق الموت لي هي الانتحار:

«bravo marzou9i!!wenti bara inta7er»

(برافو مرزوقي، وانت برّه انتحر)

ولا بأس من بعض التّشجيع على الانتحار وتصويره سبيلا وحيدا للخلاص، فالأوضاع السّياسيّة ثابتة كما هي، ولن يغيّرها كلامي. الأفضل إذن أن أرحل نهائيّا:

"والله القرار يمثلك ما يمثلكش مشكلتك اما المفيد الشعب الكل مساند شعب سورية وانتي طز فيك وتفوه عليك و كان موش عاجبك انتحري"

---

[50]إبراهيم الفقيه هو باحث وخبير تنمية بشريّة مصريّ عاش بين 1950 و2012.

والحقّ أنّ الجماعة، من فرط كرمهم، اقترحوا عليّ أكثر من سبيل للموت، فإمّا أن أدفن نفسي:

«bara idfen rouhek»

(برّه ادفن روحك)

أو أن أنصب لنفسي مشنقة:

«non barra 3alle9 machn9a werte7»

(لا برّه علّق مشنقة وارتاح)

أو أن ألقي نفسي في بئر، ألست أحمل اسم يوسف، فلم لا أحمل تاريخه مع الجبّ؟:

"امشي أرمي روحك في بير خير لك ما أخيبك يا تعيسة"

وفي الحالتين الأخيرتين، لم ينس الجماعة تذكيري بالفائدة الّتي سأجنيها من انتحاري. فأنا سأرتاح وأختار ما هو خير لي. ولا يحتاج المرء لأن يكون مختصّا في النّفسيّات ليفهم أنّ من سيرتاح ويجني الخير هو في واقع الأمر المعلّق. لكن لا يهمّ...فالإنسان في عون أخيه، وماذا لو انتحرتُ حتّى يفرح الجمع؟

للأسف لم تكن غيرتّي في المستوى المنشود، ولم أقبل الانتحار إرضاء للجماهير. وهذا ما ولّد ضربين من ردود الأفعال، إنشائيٌّ وخبريٌّ.

ردّ الفعل الخبريّ يقرّ بموتي الفعليّ.

«T’es morte espéce d’imbécile»(sic)

وبما أنْ لا أحد يمكنه العلم بموته، فإنّي أفترض أنّ المعلّق يعني موتا رمزيّا جوهره عدم قدرتي، بسبب حمقي، على التّأثير في أيّ كان.

أمّا ردّ الفعل الإنشائيّ فيعبّر عن تبرّم وامتعاض من عدم تحقّق موتي المرجوّ حتّى إنّ أحدهم فقد أعصابه وكأنّك تسمعه يصرخ عبر السّطور:

"برّ موت أزح...ديغاج"

نسيت أن أخبركم أنّ بعض الشّعب التّونسيّ تصوّر في مرحلة مّا أنّ كلمة "ديغاج" تعويذة سحريّة قادرة على إخفاء الشّخص أو الأشخاص المزعجين في لحظة. هؤلاء الأشخاص عموما سياسيّون ومسؤولون إداريّون، لكن ما الّذي يمنع من نجاح التّعويذة مع القحاب أيضا؟

«Qahba dégage»

<u>2-5 التّهديد</u>

لئن لجأ البعض إلى الدّعاء لله تعالى حلاّ للقضاء عليّ، ولئن لجأ آخرون إلى دعوتي للانتحار للتّخلّص منّي، فإنّ البعض الآخر لجأ إلى التّهديد. هؤلاء تفطّنوا إلى عجز الكلام الفايسبوكيّ عن إلغاء وجودي، لذلك تجد المهدّدين يحلمون

بلقائي حتّى يتحوّل شتمهم الافتراضيّ العاجز إلى اعتداء فعليّ قادر. ولا عجب حينها أن تقوم جلّ تعاليقهم على إمكان لقائي فعليّا:

«Vas te faire foutre... Si un jour je te rencontre... je n'hésiterai pas une seconde à tepicer decus»(sic)

(اذهبي إلى الجحيم، لو التقيتك يوما فلن أتردّد لحظة في أن أبول عليك)

رأينا أنّ العبارات المتّصلة بإفرازات الجسد معجم شائع الاستعمال في الشّتائم، لذا فهذا التّهديد قد يحيل على مدلوله المادّي. على أنّ الأغلب أنّ استعمال البول هنا استعمال مجازيّ يحيل على تحقير وإهانة.

ومن اللّطيف أنّ جلّ التعاليق المهدّدة لا تحدّد بدقّة مضمون التّهديد الفعليّ:

«tfouh 3la bou bouk el kalb ya kahba ya olfa youssef olfa zebbi ya 5amja nched zok ommik fi tounis niklik bouk wta5rali fih»

(تفوه على بو بوك الكلب يا قحبة يا ألفة يوسف، ألفة زبّي يا خامجة، نشد زكّ أمّك في تونس ننيك لك بوك وتخرى لي فيه)

إنّ هذا التّعليق عبّر عن الأذى رمزيّا بنكاح الأب بما يوحي بأنّ الأمر جدّي وخطير. أمّا عدم تحديد نوع الأذى المهدّد به

فيفتح على احتمالات شتّى. وقد تكون هذه الاحتمالات بلا حدود كما هو وارد ضمن تعليق آخر اعتمد صاحبه نقاط التّتابع بديلا عن مضمون التّهديد الّذي يتجاوز، ربّما، ما تستطيع اللغة ترميزه:

"لو كان نشدّك ..."

إنّ التّهديد يبلغ مرتبة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، علّه يبلغ فداحة الجرائم الّتي ارتكبها المشتوم.

2-6 التّرغيب:

بين كلّ الشّتائم العنيفة يبلغني أحيانا تعليق رقيق من أحد الشّاتمين يحاول أن يهديني إلى طريق الحقّ، ويستذكر ربّما قول الله تعالى: "...ولو كنت فظّا غليظ القلب لانفضّوا من حولك..." (آل عمران2، 159). وبما أنّي، في نظرهم، أقرب إلى مشركي مكّة، وبما أنّهم يرون أنفسهم في تقوى الرّسول ومواصلين لوظيفته، فأنت تجدهم أحيانا يطرحون عليّ في لطف أسئلة إنكاريّة تذكّرني بضلالي:

"ألفة يوسف خلّي نسئلك أنا سؤال: لماذا تشترين بآيات الله ثمنا قليلا" (هكذا)

طبعا معنى هذا السّؤال الإنكاريّ تقرير ثابت، فلا نقاش ولا جدال في أنّي أشتري بآيات الله ثمنا قليلا.

وإذ ثبت أنّي من الضّالّين فلا بأس من أن يدعو لي الجماعة بالهداية:

"ربي يهديك"

قد تكون دعوتهم أمرا بالمعروف كما يتصوّرونه:

«ya chesmek etta9i rabbek»(يا شإسمك اتقي ربّك)

وقد يسم البعض كلامه لفظا بأنّه نصيحة:

«5af rabi bel79 nsi7a men 5ouk esghir»

(خاف ربّي بلحق نصيحة من خوك الصّغير)

وكلّ ما سبق يمكن أن تشمله عبارة "التّوبة" يدعوني إليها أحدهم دعوة مباشرة:

"توبي إلى الله يا أمة الله فالمسلم المتدين لا يحتار"

كلّ هذه الدّعوات لله حتّى يهديني، كلّ هذه الدّعوات لي للتّوبة وتقوى الله وخشيته تقتضي طبعا أنّي مذنبة جوهرا وأنّ ضلالي أمر محسوم. ولكنّ سماحة القوم حملتهم على تمكيني من فرصة التّراجع عن غيّي فإذا تماديتُ فيه، فالمنطق يقول بضرورة المرور من التّرغيب إلى التّرهيب.

"ربي ارتحنا منها كان بإعلان التوبة والاعتذار للشعب التونسي وإلا لجهنم وبئس المصير ليها ولمثقفين الهانة"

2-7 التّرهيب

التّرهيب من ضروب التّهديد، مع فرق بسيط إذ يتحقّق التّهديد بواسطة فعل بشريّ، أمّا التّرهيب فيتحقّق بواسطة فعل إلهيّ.

وقد قام التّرهيب، في تعاليق "الفايسبوك"، على تذكير المخاطب بالعقاب الّذي ينتظره من قبل الله تعالى:

«toi l exemple de la bassesse de la connerie, ki va payer et ben toi and rabbi 9bal le3bed»

(أنت، يا نموذج السّقوط والحمق، من سيدفع الثّمن إزاء الله قبل أن يكون ذلك إزاء عباده)

بل إنّ بعضهم يذهب إلى تصوّر وقفتي بين يدي الله تعالى في وصف دقيق، وكأنّه شاهد عليها:

"ويلك مما كتبت وتكتب يداك ومما ينطق بِِ لسانك العفن لدينا وقفة بين يدي العزيز الجبار حينها ستقولين يا ليتني كنت ترابا ويا ليتني لم أخلق في هذه الدّنيا قطّ"

واللاّفت للانتباه أنّ أغلب التّعاليق "تخشى عليّ" عذاب القبر وسؤال الملكين:

"عندما يسألك الملكين ماذا ستقولين؟" (هكذا)

أو

"يا ويلك من ربي فين باش تلقا قبرك" (هكذا)

ولا شكّ أنّ تواتر الإشارة إلى عذاب القبر دليل على قلق نفسيّ عميق لدى المعلّقين متّصل بهذا الضّرب المفترض من ضروب "التّعذيب"، على أنّ الأهمّ من هذا كلّه هو ثقة الجماعة من مصيري: " جهنّم وعذاب القبر وقولي: ليتني كنت ترابا"...هذا كلّه أكيد ومضمون.

المشكل هو أنّه من المفروض أنّ الله تعالى وحده يحاسب العباد، فكيف تأكّد الجماعة من مصيري المظلم المحتوم؟

الأمر بسيط: إذا كان جلّ الشّاتمين على الواب متأكّدين من مصيري، فهل يجوز أن يخطئوا؟

إنّ غضب الله من غضب الجماعة ورضاه من رضاهم:

"هنيئا لك سخط الله وسخط النّاس"

يبقى تفصيل بسيط: إذا كان عذابي مضمونا واحتراقي بنار جهنّم من تحصيل الحاصل، فما الّذي يزعج الجماعة إلى هذه الدّرجة؟ المفروض أنّ شتمك شخصا يفيد احتقارا وكرها أو موقفا سلبيّا على الأقلّ، فلماذا كلّ هذا الانزعاج من إمكان عذابي؟ منطقيّا يجب أن يكون هذا العذاب من دواعي سرور الجماعة وفرحهم. لكن المسألة النّفسيّة أعمق كما سنرى إذ نعرض للشّخصيّة التّونسيّة من خلال الشّتائم.

قل لي كيف تشتم أقل لك من أنت

ما الشّتيمة؟

تعاملنا مع الشّتيمة على أنّها من تحصيل الحاصل، وآن الأوان لتقديم تعريف لها. الشّتيمة هي قول ينشد تحقير الآخر والإنقاص من قيمته بل إيذاءه وإيلامه أحيانا. والشّتيمة بما هي عمل قول يقوم على نشدان النّتيجة، تُعدّ عمل تأثير بالقول[51]. وهو عمل لغويّ يتحقّق لفظا شأن كلّ الأعمال اللّغويّة الأخرى، ولكنّه لا ينجح إلاّ إذا أحدث تأثيرا في المتقبّل. فالشّتيمة: "يا أحمق" مثلا لا تحقّق هدفها إلاّ إذا أحسّ المشتوم أنّه فعلا "أحمق" وإن يكن ذلك لحظة الشّتيمة فقط. ولكن سواء أنجحت الشّتيمة في تحقيق هدفها بجعل المتقبّل يتماهى معها أم لم تنجح، فهي في كلّ الأحوال تكشف عن وجوه من ذات الشّاتم.

الشّتيمة تعبير عن الذّات لا عن الموضوع

بديهيّ أنّ كلّ كلام لا يعبّر إلاّ عن ذات المتكلّم، فاللّغة كما بيّن ذلك بيرس (Pierce) تقوم على دوالّ تحيل على دوالّ

---

[51] عمل التّأثير بالقول (acte perlocutoire) هو عمل لغويّ متّصل بتحقّق تأثير في المتقبّل. إذا قلت مثلا لشخص: "أغلق النّافذة"، فهذا الأمر عمل قوليّ. أمّا إغلاق النّافذة فيجسّم عمل التّأثير بالقول.

تحيل على دوالّ إلى ما لا نهاية له. إنّ اللّغة بما هي نظام رمزيّ مستقلّة عن الواقعيّ، ولكنّها متّصلة أشدّ الاتّصال بالخياليّ، وهي من ثمّ معبّرة أيّما تعبير عن مخيال الباثّ فرديّا كان أم جماعيّا[52].

وقد تكشف الشّتيمة عن خصائص الذّات الفرديّة، فيمكن أن نعتبر أنّ من يشتم أسود باعتماد الصّفة: "يا وصيف" مثلا، هو عنصريّ. على أنّ الشّتائم تعبّر عن الشّخصيّة الجماعيّة أكثر من تعبيرها عن الشّخصية الفرديّة. وإذا عدنا إلى المثال الّذي ضربناه، لوجدنا أنّ الشّتيمة ب"يا وصيف" لا معنى لها في مجتمعات من السّود. إنّ الشّتيمة بما هي تحقير للآخر تستند إلى نظام تقييم جماعيّ بموجبه يتحدّد ما هو محقّر أي مقيّم سلبا، وما هو مقدّر أي مقيّم إيجابا. والمجتمعات الّتي تشتم الآخر استنادا إلى صورته الجسديّة إنّما تعبّر من خلال هذا النّوع من الشّتائم على رؤيتها للصّورة الجسديّة النّموذجيّة. فأن يقال في بلادنا لشخص إنّه "بطّي" أكثر انتشارا من أن يقال له

[52] يمكن التّذكير بتمييز لاكان (Lacan) الثّلاثيّ بين الخياليّ والرّمزيّ والواقعيّ (l'Imaginaire, le Symbolique et le Réel). فأمّا الخياليّ فيشمل ما له صلة بالصّور والفانتازمات والعلاقات مع الأمّ أساسا، وأمّا الرّمزيّ فيشمل ما له صلة باللّغة وبالقانون. وأمّا الواقعيّ فيشمل ما لا يخضع إلى التّمثيل اللّغويّ والرّمزيّ.

إنـه "مسبوع"[53]، وفـي الحـالتين فالشّـتم يفيـد أنّنـا بـإزاء مجتمـع يستهجن السّمنة والنّحافة. وكذا شأن الشّتيمة بالقول: "يا اللّي جاي من وراء البلايك"[54]، فهي تفيد أنّنا في مجتمع يستهجن من هم ليسوا من أهل الحضر ويحتقر "النّازحين" إلى المدن.

ولأنّنا نفترض أنّ الشّتائم تعبّر عن صورة الشّخصيّة الجماعيّة، فإنّنا سنحاول فيما سيأتي عرض بعض خصائص ذات التّونسيّ من خلال مضمون الشّتائم من جهة ومن خلال وظيفة الشّتائم من جهة أخرى.

1-بعض وجوه الشّخصيّة التّونسـيّة مـن خـلال الشّتائم

1-1 ضمور مفهوم الفرد وطغيان مفهوم الجماعة

من أبرز ما تكشف عنه مدوّنة الشّتائم أنّ التّونسيّين يتعاملون مع الواقع من منظور الجماعة أساسا، إذ يبدو أنّ مفهوم الفرد ليس مستبطنا بما فيه الكفاية. ولذلك وجوه عدّة منها:

1-1-1 من يمثّل من؟

[53] البطّي هو ذو الوزن الزّائد وفق المواصفات الجماعيّة، والمسبوع هو ذو الوزن النّاقص وفقها.

[54] عبارة تعبّر عن القاطنين خارج المدن بالقرى والأرياف البعيدة.

تكرّر لدى الشّاتمين نفيُهم أنّي أمثّل المرأة التونسية أو أنّي أمثّل المسلمين:

"أنت ما تمثلش المرأة التونسيّة"

"انحب نسأل ها الشلاكة اللي ما تمثل حتى تونسي أو حتى مسلم"

"وأنت يا أستاذة الغفلة ما متمثلنيش لا ك تونسية و لا ك مثقفة"

إن تكرّر هذا الضّرب من الأقوال يبيّن العسر الّذي يجده بعض التّونسيين في التّعامل مع الآخر بصفته فردا مستقلاّ لا يمثّل إلاّ ذاته فقط. فمن يهتم بالشّأن العامّ يجب أن ينطق، في رأيهم، باسم جماعة مخصوصة، إمّا أن يمثّلها أو أن لا يمثّلها. وعندما يفشل في تمثيلها فإنّه يعتبر مخلاّ تجاه هذه الجماعة، ويكون وجوده مجلبة عار لها:

«ma5yebbektjibi el 3ar le twanssa»

(ما أخيبك، تجيبي العار للتّوانسة)

"أنت عار على المرأة المسلمة"

إنّ مفهوم العار هذا مفهوم قبليّ. وهل أكثر من المفاهيم المتّصلة بالقبيلة دلالة على تغلغل "الجماعيّ" في مخيالنا العامّ؟ إنّه من العسير على التّونسيّين أن يتصوّروا أنّ المرء يمكن أن يعبّر عن رأي فرديّ لا يندرج في إطار امتلاك حقيقة ولا يحمل لواء دعوة. ولذلك رأينا كثيرا من التّعاليق الشّاتمة تحوّل قراءة

ممكنة لمسألتي الحجاب والمثليّة إلى حملة ضدّ الحجاب وإلى دعوة إلى المثليّة[55].

1-1-2 الفريق

إنّ تغلغل مفهوم الجماعيّ لدى الشّاتمين يجعلهم يتصوّرون أنّ خصومهم أيضا يمثّلون جماعة. ومن هنا يضع الشّاتمون "خصومهم" في كيس واحد، قد يكون كيس من يدّعون أنّهم "مفكّرون" أو كتّاب:

"يوسف الزنديق ألفة يوسف وغيرهم هذه النّماذج"

صاحب التّعليق يعمد إلى عبارة "النّماذج"، والنّموذج مظهر أساسيّ من مظاهر التّفكير بالجماعة. بل إنّ عقليّة "الجماعة" هذه تسافر مع الشّاتمين من الحياة الدّنيا إلى الحياة الآخرة حيث علّق أحدهم على صورة لي مع يوسف الصدّيق قائلا:

"ربي يجمعكم ببعضكم يوم الحشر إن شاء الله فكل يحشر مع من يحب"

وقد يكون الكيس الجامع للخصوم كيس النّساء الكافرات الجاهلات:

«enti w raja ben slama zouz bhaim. w nhar elkol t7arbou fedin. ya kofar ya ta7ana»

---

[55] راجع ص71.

(إنت ورجاء بن سلامة زوز بهايم ونهار الكلّ تحاربو في الدّين يا كفّار يا طحّانة)

والنّساء المشتومات قد يجمعهنّ الجهل والكفر، وقد تجمعهنّ أيضا الدّعارة:

"داعرات من أمثال آمال موسى وصباح التوجاني وعبير موسي ورياض الزّغل وغيرهنّ"

وقد تتلوّن الجماعة أحيانا بلون سياسيّ تجسّمه شخصيّة سياسيّة وأتباعها، وتتمظهر لغويّا من خلال أداة العطف "الواو":

"برا يعطيك كلب أنت وبشار وبورقيبة يا كلاب يا قحاب"

أو من خلال الأداة "مع":

«3asba likem wel baji m3akim»

(عصبة ليكم والباجي معاكم)

"منين جاها النضال قلي كانت تناضل مع بن علي وليلى الطرابلسي وازلام النظام السابق"

وفي هذا السّياق نفسه، تواتر على الشّبكات الاجتماعيّة نشر صور مفبركة تجمع الخصوم مؤكّدة أنّهم يمثّلون فريقا واحدا.

ومن الطّريف الإشارة إلى أنّ الانتماء إلى المجموعة المعترف بها قد يتحوّل ويتبدّل أحيانا ما أن تفقد تلك المجموعة بعضا من بريقها الجماعيّ. وهذا ما جسّمته تعاليق كثيرة تهاجمني

ولكنّها تنفي عن نفسها الانتماء إلى حزب "النّهضة" الإسلاميّ لما لحقه في سياق مّا من تهم واستهجان:

«manich nahdhawi wala salafi; just moslem»

(منيش نهضاوي وإلاّ سلفي، مسلم فقط)

لن نركّز على ما في هذا التّعليق من نكران (dénégation) واضح[56]، لأنّ ما يعنينا في هذا المقام هو تأكيد فكرة "الفريق" الجماعيّة حيث من المفروض أن ينتمي الشّاتم إلى مجموعة تكون بالضّرورة في مقابل مجموعة الخصوم كفّارا كانوا أم جهلة أم داعرات إلخ...

3-1-1 المؤامرة وتحميل المسؤوليّة للآخر:

في سياق وجود خصم هو خصوم، وفي سياق غياب إمكان تمثّلٍ للفرد، يكون اللّجوء إلى نظريّة المؤامرة لتفسير الأوضاع نتيجة شبه منطقيّة. فالجماعة الشّاتمة هي في حرب مع جماعة أخرى رأينا أنّها قد تكون ماسونية أو استشراقية أو صهيونيّة[57]. لا تهمّ ماهية المجموعة بقدر ما يهمّ وجودها، ذلك أنّ وجود المجموعة المتآمرة يمكّن من تحميل مسؤوليّة الخطإ والمشاكل

---

[56]التّكران ضرب من النّفي الّذي يفيد تأكيد إثبات لاواع من قبل المتكلّم. ومثاله الشّهير ذاك الّذي ذكره فرويد حول شخص يقول: "ذاك الشّخص في الحلم ليس أمّي"، بما يثبت أنّ ذاك الشّخص هو أمّه.

[57]انظر صص 64-66.

والمصائب للآخر الّذي يغدو شمّاعة مريحة عليها يمكن تعليق كلّ ما يزعج الأنا.وفي هذا الإطار نفسه تتنزّل صورة الشّيطان الّتي تشيع في لغتنا والّتي وُسمت بها بعض الأحيان[58].

إنّ الخلاف لا يمكن أن يكون بين فردين لكلّ منها حرّيّة النّظر والتّأمّل، وإنّما الخلاف جماعيّ جوهرا. وإذ أشرنا إلى مفهوم العار القبليّ، فيمكن أن نضيف إليه في هذا المستوى مفهوم الإقصاء القبليّ أيضا، ذلك أنّ كلّ من يخالف نظم المجموعة يعاقب بعقوبات متعدّدة منها الإقصاء من الجماعة.

1-1-4 الإقصاء من المجموعة

ربّما يذكر بعضكم قول طرفة بن العبد في معلّقته الشّهيرة:

"وما زال تشرابي الخمور ولذّتي   وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي
إلى أن تحامتني العشيرة كلّها   وأفردت إفراد البعير المعبّد"

بعد قرون من معلّقة طرفة، نجد البعض يجنح إلى نفس ردّ الفعل القائم على إقصاء المختلف وإبعاده. وبحكم تبدّل السيّاقات الزّمكانيّة، يتحوّل الطّرد من القبيلة إلى إلغاء للجنسيّة:

"انا تونسي واطالب بسحب الجنسية التونسية من هذه المتخلفة"

---

[58]انظر ص 81.

تسند الاستعمالات اللّغويّة التّونسيّة الخطأ إلى الشّيطان دوما: "الشّيطان حضر"، "الله يلعنك يا إبليس"، "هاو عكس الشّيطان" إلخ...

استناد إلى كلّ ما سبق، يتأكّد طغيان مفهوم الجماعيّ لدى التّونسيّ. والحقُّ أنّ هذا المفهوم قائم في بعض أمثالنا الشّعبيّة من نوع: "أعمل كيف جارك وإلاّ حوّل باب دارك"، ومن نوع: "الجماعة صفّ صفّ والقريّد وحده". كما أنّ مفهوم ارتقاء "الجماعيّ" قائم أيضا في الثّقافة العربيّة الإسلاميّة بما هي بعض وجوه ثقافة التّونسيّين ف"يد الله مع الجماعة"، والإجماع مصدر أساسيّ من مصادر التّشريع.

1-2 العلاقات الجندريّة عموديّة

لا تشذّ العلاقات الجندريّة عن الخضوع لمفهوم الجماعيّ. ولمّا كان مفهوم الجماعيّ هامّا لدى الشّخصيّة التّونسيّة، فمن المندوب أن يمثّل جميع الرّجال وجميع النّساء نموذجا واحدا من حيث رؤيتهم للعلاقات الجندريّة. وهذه العلاقات هي، من المنظور الجماعيّ، علاقات عموديّة بين الرّجال والنّساء تكون النّساء بموجبها في منزلة دونيّة.

1-2-1 اختزال المرأة في البعد الجنسيّ/ المرأة موضوع لا ذات

لقد عرضنا للصورة النّموذجيّة للمرأة فهي الزّوجة المطيعة المرتدية للحجاب أو "المستورة"[59]. أمّا إذا لم تلتزم المرأة بهذه

[59] راجع صص38-41.

الشّروط، فهي تخرج من مجموعة المرأة المقبولة اجتماعيّا لتنتمي إلى مجموعة أخرى منبوذة هي مجموعة القحاب.

صفة القحبة إذن هي كسيف داموكلاس (Damoclès)[60] على رأس المرأة لأنّها ما أن تخلّ بواحدة من الصّفات الأنثويّة النّموذجية حتى تغدو قحبة، وهي أكثر الشّتائم شيوعا وانتشارا.

إنّ التّركيز على ضرورة ارتداء الحجاب أو الشّتم باعتماد صفتي السّفور والعراء لا يختلفان عن الشّتم باعتماد لفظ "القحبة، إذ كلاهما يختزل المرأة في البعد الجنسيّ. فأمّا ارتداء الحجاب فيفيد أنّ المرأة هي نفسها تقبل هذا الاختزال وتنضبط لقوانين المجتمع ب"حماية" الرّجل من الفتنة. وأمّا رفض الانضباط للقوانين الجندريّة فهو يجعل المرأة قحبة أي امرأة مبذولة للجميع جنسيّا. ومن هنا فالمرأة هي في كلّ الأحوال سجينة دائرة الخدمة الجنسيّة لا تملك من قضبانها فرارا، ولذلك أسلفنا أنّ النّساء جميعهنّ قحاب بالقوّة، ولذلك أيضا وجدنا أنّ

[60]داموكلاس شخصيّة أسطوريّة كانت تبالغ في مدح أحد الطّغاة، فطلب منه الطّاغية أن يحلّ محلّه على كرسيّ الحكم يوما. وعندما رفع داموكلاس رأسه وجد فوقه سيفا معلّقا لا تشدّه إلاّ شعرة. وقال الطّاغية مفسّرا إنّ السّلطان الّذي يمتلكه له وجه ثان، وهو إمكان أن يموت في كلّ لحظة بسقوط السّيف على رأسه. ويّضرب سيف داموكلاس مثلا على خطر يهدّد كلّ لحظة ولا يمكن منه الفرار.

الشّتم باعتماد المعجم الجنسيّ أكثر شيوعا تجاه النّساء منه تجاه الرّجال.

وفي كلّ الحالات، سواء أكانت المرأة قحبة بالفعل أم كانت خاضعة للنّموذج الاجتماعيّ، فإنّ عليها أن تكون جميلة مثيرة جذّابة وإلاّ دخلت خانة النّساء غير المنكوحات (lesmalbaisées) والعياذ باللهّ[61].

ولا يقتصر تمثّل المرأة الاجتماعيّ على جعلها في خدمة الزّوج جنسيّا فحسب، وإنّما عليها أن تكون في خدمة الرّجل من خلال الاعتناء بشؤون البيت من تنظيف وغسيل وطبخ يؤكّد الشّاتمون أنّه طبخ للزّوج أساسا[62]:

"موش احسن تمشي تقلي عضمة لراجلك احسن من نبيح الكلاب"

إنّ الشّتائم تكشف عن شخصيّة تونسيّة تتصوّر المرأة موضوعا لا ذاتا. المرأة هي موضوع للشّهوة الجنسيّة وأداة للخدمة. ومن المنطقيّ، والحال تلك، أن تكون أبرز فضائل المرأة هي الصّمت[63]. هل سمعتم يوما أداة تتكلّم[64] أو موضوعا يدلي برأي؟ إنّ الحديث في الشّأن العامّ والتّعبير بصوت عال ليس

[61]انظر صص36-38.

[62]انظر صص 41-42.

[63]انظر ص 24.

[64]حتى الأدوات "المتكلّمة"لا تتكلّم إلاّ وفق البرمجيّات الموضوعة فيها.

من خصائص النّساء فضلا عن أن يكون ذاك التّعبير نقدا للواقع وبيانا لخطله.

وقد أسلفنا مختلف الأساليب المعتمدة للإسكات من الأمر بالصّمت إلى التّهديد بالقتل. فكأنّ لسان حال جميع الشّاتمين يقول:

"تي اسكت...برّ موت أزّح ديغاج"

ولعلّ ما يؤكّد أنّ أهمّ أهداف الشّتائم حملُ المرأة المتكلّمة على الصّمت أنّ البعض يرى الاستمرار في الكتابة بعد الشّتم أمرا غريبا:

«olfa youssef 3amla page bech cha3eb yo93od yseb fiha hhhhhhh ye5i mafaditech melba5es rak makrouha»

(ألفة يوسف عاملة صفحة باش الشّعب يقعد يسبّ فيها هههههه ياخي ما فدّيتش من البخس، راك مكروهة)

1-2-2 الرّجل الفحلأو فانتازم سي السّيّد

لئن كانت المرأة محصورة في دائرة الموضوع الجنسيّ، فإنّ الرّجل مقدّر عليه بذلُ قصارى جهده للحفاظ على سجن المرأة هذا. الفحولة متّصلة، فيما هي متّصلة به، بتأديب المرأة وإعادتها إلى مربّعها الدّونيّ الأصليّ كلّما أرادت منه فرارا. الرّجل المثاليّ هو "سي السيّد" شخصيّة "بين القصرين" الّتي

خرجت عن إحالتها الفرديّة لتغدو نموذجا جماعيّة وصورة طرازيّة[65].

ومن اللّطيف أنّ الرّجال الّذين لا يقومون بهذا الدّور يحتقرهم المخيال الجماعيّ أكثر من احتقاره المرأة أحيانا، ذلك أنّ المرأة لا خيار لها. فقد خُلقت ناقصة عقل ودين، أمّا الرّجل الّذي اصطفته الطّبيعة، فلا مبرّر لخروجه من دائرة الفحول. وإن خرج، فهو يكتسب صفتين إحداهما ألعن من الأخرى.

الأولى هي صفة الدّيوث الذي يخسر بانتصاره للمرأة كلّ نخوة ورجولة، والثّانية هي صفة المأبون[66]. المأبون كما أسلفنا هي شتيمة الذّكر الموازية لشتيمة الأنثى بأنّها قحبة. وتشترك الصّفتان في أنّهما لغويّا كلمتان تُزحزحان دلاليّا عن معناهما المرجعيّ وتستغرقان المعنى الالتزامي الجماعيّ الاستهجانيّ.

1-2-3 الأنثويّ بين الشّوق والخوف

أسلفنا أنّ الشّاتمين يتهجّمون على المرأة الفاعلة وأنّها هي الّتي توصف بالقحبة لخلخلتها الموازنات الجندريّة، وأكّدنا أنّ غاية الشّاتمين القصوى هو صمت المرأة وغيابها عن الفضاء

[65] عبارة "سي السيّد" بدلالتها على الرّجل الشّرقيّ التّقليديّ خرجت من صفحات نجيب محفوظ لتغدو متداولة في الأفلام والمسلسلات وحتّى بعض الأغاني.

[66] راجع صص30-31.

العموميّ وان اقتضى الأمر الدّعاء عليها بالموت عسى أن تسكت نهائيّا.

على أنّ علاقة التّونسيّ بالأنثويّ تقوم على مفارقة إذ التهجّم على الأنثويّ يضمر شوقا إليه. إنّ كثرة الشّتائم الّتي كيلت للمرأة تؤكّد احتلالها حيزا كبيرا من اهتمام الشّاتمين. ثمّ إنّ تهجّم البعض على الرّجال الّذين يضفون على "القحبة" قيمة يثبت أنّ الشّخصية الجماعية للشّاتمين تندرج بشكل ما في نطاق قولة شهيرة تسند إلى علي بن أبي طالب تفيد أنّ "المرأة شرّ كلّها وشرّ ما فيها أنّه لا بدّ منها".

إنّ الأنثويّ بصفته موضوعا للشّوق الذّكوريّ مؤثّر في الرّجل قادر على السّيطرة عليه، ومن هنا فالمرأة رغم أنّها موضوع لا ذات، تكتسب سمات الفعل في الرّجل. وهذه الجدليّة بين صورة المرأة موضوعا مستهجنا نجسا دونيّا من جهة وصورة المرأة حاملة لبذور التّأثير في الرّجل هي الّتي تصنع المفارقة، وهي التي تفسّر شيوع الشّتيمة ب"يا قحبة".

القحبة منبوذة مرغوب فيها في الآن نفسه. ومن هذه الرّغبة القائمة بالقوّة يكون ضررها كبيرا. أليس أنّ الشّاتمين ينتمون إلى ثقافة تعتبر أنّ المرأة ناقصة عقل ودين وتقرّ في الآن نفسه بسطوتها على أساس أنّها أكبر فتنة يمكن أن تلحق الضّرر

بالرّجال[67]. فلا عجب، والحال تلك أن تُحمّل النّساء مسؤوليّة المصائب السّياسيّة منها والاجتماعيّة وحتّى المناخيّة[68].
ونفس هذه المفارقة بين المستهجن والمرغوب تتجسّم أيضا من خلال الموقف من الجنس متراوحا بين إكبار واحتقار[69]. ألم نقل إنّ المرأة كائن جنسيّ بامتياز؟

1-3 الأنا والآخر: علاقة مقارنة وصراع

أسلفنا أنّ جلّ الشّتائم في المجال المعرفيّ تقوم على التّحقير من شأن المكانة المعرفيّة المفترضة لشخص أو لمجموعة أشخاص. وأسلفنا الإشارة إلى أنّ الهوس بإثبات أنّ شخصا مّا جاهل هو أكبر دليل على اعتراف ضمنيّ بتأثير مّا له. فمن ذا الّذي يولي جاهلا لا تأثير له كلّ هذا الاهتمام؟
وتعقد جلّ الشّتائم مقارنة بين قيمة الشّخص المعرفيّة المفترضة وبين قيمته الفعليّة كما يراها الشّاتم. ولذلك يتكرّر ذكر الشّهادات العلميّة في معرض سخرية وقدح.
"تو إنت دكتورة؟"

---

[67]ينسب إلى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، قوله: "ما تركت بعدي فتنة أضرّ على الرّجال من النّساء"، بإذن الله
[68]"انظر صص32-34.
[69]انظر صص 103-105.

«Fech tab7eth hethii, allah yehlekha wyehlek elli 3taha elkardouna mta3 doctora»

(فاش تبحث هذي، الله يهلكها ويهلك اللي أعطاها الكردونة متاع دكتورا)

"يكب سعد الدكتورا لشكون جات"

1-3-1 المقارنة أو شوف أسيادك

إنّ المتأمّل في الشّتائم يتبيّن أنّ المقارنة بين قيمة المشتوم المفترضة وقيمته الفعليّة ليست إلاّ ظاهر المسألة، ذلك أنّ المقارنة العميقة هي في واقع الأمر مقارنة بين المشتوم في شخصه والشّاتم في شخصه أو بين الجماعة التي ينتمي إليها الشّاتم أو يتصوّر، والجماعة الّتي ينتمي إليها المشتوم أو يتصوّر.

إنّ الشّخصيّة الجماعيّة التّونسيّة تقوم على المقارنة بين الأنا والآخر. وهي ليست مقارنة من قبيل تفريق الأدوار بين النّاس وتحديدها، وإنّما هي مقارنة معياريّة قوامها تفضيل البعض من النّاس على البعض الآخر. وهذا متلائم مع التربية التّونسيّة الطّراز المستندة إلى المقارنة بين الإخوة داخل الأسرة وبين التّلاميذ والطّلبة في القسم. وليس غريبا والحال تلك أن تتكرّر عبارة "سيدك" و"أسيادك" في الشّتم مذكّرة بلغة "الفيراج" في

ملاعب الكرة التّونسيّة[70] ومذكّرة بعبارة تتواتر في مجال المقارنة التي تقزّم بعضا وترفع بعضا:

"توه وليت تحل في فمك و تتهكم من سيدك في الكفاح"

« chlaka wilmarzou9i sidik ya chlaka kam anti lol »

(شلاكة والمرزوقي سيدك يا شلاكة. كم أنت مضحكة)

"الفقهاء هم أسيادك"

1-3-2 الصّراع

إنّ قيام الشّخصيّة الجماعيّة على المقارنة ينتج تمثّلا للعلاقات لا يخرج عن كونه صراعا معياريّا بين من هو على حقّ ومن هو على باطل. وقد يوسم هذا الصّراع لفظا باستعمال عبارة "ضدّ" (contre):

«A7sin min mousalsil klab r c d contre a7rar tounis hhhhhhhh»

(أحسن من مسلسل كلاب التّجمّع ضدّ أحرار تونس هههههه)

إنّ هذه الرّؤية المانويّة للعالم تجسّمت صراعا ذا مرحلتين، الأولى كانت سعيا إلى تغيير الآخر بالدّعوة والتّرغيب. وقد أسلفنا تحليل مختلف الدّعوات إلى تحقيق صورة الرّجل الفحل والمرأة النموذج و"المسلم" المثاليّ إلخ[71].

---

[70] من االهتافات الشّائعة لدى جمهور الكرة: "شوفوا أسيادكم"

[71] انظر صص 30-32، ص38، صص63-66.

أمّا مرحلة الصّراع الثّانية فتجسّمت في التّهديد والتّرهيب[72] وكأنّ الجماعة يطبّقون في لاوعي جمعيّ قراءتهم للحديث الشّائع: "من رأى منكم منكرا فليغيّره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان".

الغريب أنّ هذا الصّراع ليس موجودا أحيانا إلاّ في ذهن الشّاتم الّذي يتجاوز تصوّر الصّراع إلى استباق نتائجه والإجابة عن ردود أفعال غائبة في الواقع. ونضرب على ذلك مثالين:

"ننيك لك بوك وتخرى لي في□"

« haw zebi tchedni menou »

(هاو زبّي تشدّني منّه)

في هذين التّعليقين يتصوّر الشّاتم تحقّق الصّراع ليؤكّد عجز الآخر، وليثبت لنفسه أنّه هو المنتصر في الصّراع لا محالة.

إنّ هدف الصّراع الوحيد هو الانتصار، ولا شيء غير الانتصار. قد يتظاهر الشّاتم بأنّ هدفه نصرة الدّين مثلا، ويلجأ مع ذلك إلى الكلام البذيء والألفاظ النّابية، فالغاية تبرّر الوسيلة. والنّصر المنشود يبيح كلّ أساليب الشّتم ومجالاته بما في ذلك ما ليس المشتوم بمسؤول عنه شأن العيوب الخلْقيّة وكبر السنّ والمرض[73].

---

[72] انظر ص 123 وص 126.

[73] راجع ص83، صص88-89.

1-3-3 سبل "التعايش" غير متمثّلة

يقوم الصّراع على غياب مفاهيم أساسيّة للتّعايش. فمن ذلك أنّ التّونسيّ لا يفهم الدّيمقراطيّة بما هي حماية الأغلبيّة لحقوق الأقليّة، وإنّما الدّيمقراطيّة هي عنده سيطرة الأغلبيّة على الأقلّيّة. ويحمله هوس الصّراع إلى تصوّر أنّ "الأقلّيات" يجب أن تصمت:

"كيف يينتخبوك أنت المرا الجاية سمعنا صوتك ومواقفك"(هكذا)

ومن جهة أخرى، فإنّ البعض يجتنب الحوار الهادئ مستبدلا إيّاه بالأحكام السّلبيّة:

"اخرج من صفحة الكفر هي جاهلة. إياك أن تجادل الجاهل فقد يخطئ الناس في التفرقة بينكما"

على أنّ ألطف ما يجسّم انغراس مفهوم الصّراع في المخيال الجمعيّ هو أنّ التّونسيّ لا يتصوّر إمكان مساندة شخص لآخر لمجرّد اتّفاق فكريّ أو تلاق في وجهات النّظر. فلا تكون المساندة عنده إلاّ ضربا من ضروب الانبطاح أو ما يعبّر عنه التّونسيّ بال"طحين" وال"تلحيس":

"موقف التّحدي؟ قداكش طحّان ولحّاس"

إنّ مفهوم "الطّحين" هذا من المفاهيم الشّائعة لدى التّونسيّ ممّا قد يغيب في ثقافات أخرى. وأسّه عدم تمثّل ندّية في العلاقات

والاختيارات، أسّه عسر تصوّر فرد يقتنع برأي الآخر ويتّبعه طوعا. فمن يوافق الآخر هو بالضّرورة منافق أو ذو شخصيّة ضعيفة أو انتهازيّ، ومعنى كلمة "طحّان" هو جماع معاني هذه الألفاظ الثّلاثة.

ولعلّ مفهوم الصّراع يحيل في بعده الأقصى على نشدان إلغاء الآخر. فقد أسلفنا الإشارة إلى الدّعاء بالموت أو التّهديد به[74]، وفي الحالتين يهدف الشّاتمون إلى إقصاء الآخر لا فحسب من المجموعة كما رأينا وإنّما من هذه الحياة الدّنيا. المهمّ أن لا يوجد مكان لأيّ فكر أو رأي مختلفين.

2-الشّتائم من المنظور الوظيفيّ

2-1 المجتمع محافظ، قلق من التّغيّر: الشتيمة آخر حجر في قلعة آيلة إلى السّقوط

من أبرز ما كشفت عنه مدوّنة الشّتائم السّعي إلى إبقاء الوضع كما هو في المجال الاجتماعيّ. فلئن تقبّلت الجماعة تغيّر الأوضاع السّياسيّة بما هي في جوهرها متحوّلة، فإنّهم يتصوّرون أنّ البنى الاجتماعيّة التّونسيّة صالحة لكلّ زمان ومكان.

---

[74] راجع صص 119-122.

هذا واضح من خلال صورة المرأة النّموذج والرّجل كما أسلفناها، وواضح من خلال اعتبار أنّ يد الله مع الجماعة وأنّ جميع التّونسيّين يجب أن يكونوا مسلمين وغيريّين وأنّ جميع التّونسيّات يجب أن يكنّ متزوّجات ومستورات وأنّ الأفراد الضّالّين عن الجماعة مصيرهم الإقصاء رمزيّا وفعليّا.

هذا ما يتصوّره الجماعة، ولكنّ جوهر الحياة هو التّحوّل والتّغيّر. فبنى المخيال الجماعيّ الصّامدة في التّمثّلات الذّهنيّة واللّغويّة بدأت تتخلخل في الواقع. التّونسيّات يحتللن مواقع قرار ويشغلن مهنا رأسمالها الرّمزي كبير ويملأن الفضاء العموميّ، والتّونسيّون اللاّدينيّون وغيرُ المسلمين من مسيحيّين وبهائيّين أساسا غدوا معبّرين عن اختياراتهم العقديّة، والمثليّون خرج بعضهم إلى العلن، بل نشأت في تونس جمعيّات للدّفاع عن حقوق المثليّين.

2-1-1 أهمّ مواضيع الخوف من التّغيّر

إنّ بذور تغيّر الواقع ولّدت في نفوس بعض التّونسيّين خوفا عميقا تجسّم فيما أسلفناه من شتم الّذين تصوّرهم المعلّقون محاربين للإسلام وناشرين للكفر والمثليّة والفسوق.

ولعلّ خوف التّحوّل الاجتماعيّ شمل أساسا موضوعين أوّلهما الخوف من انفراط الجماعة الدّينيّة، وما اعتماد كلمة "الإجماع" في التعليق التّالي إلاّ تأكيد لذلك:

"يا ربّ لا تؤاخذنا بما فعل ويفعل السّفهاء منّا...ألفة الجاهلة الملحدة حملها الكبر على أن تأتي بشيء لم يسبقها بـ أحد من الفقهاء وعلماء الإسلام قاتبة بل وتخالف خلاف واضح القرآن والإجماع"(هكذا)

أمّا الموضوع الثّاني للخوف فاتّصل بخلخلة الموازنات الجندريّة. إنّ التّمييز بين الذّكوريّ والأنثويّ ووضع حدود اجتماعيّة وقيميّة فاصلة بينهما هو حدّ أساسيّ في المجتمعات الأبويّة. فلكلّ جنس دور مختلف وصفات التزاميّة دقيقة لا يجب الخروج عنها أو تجاوزها، فما بالك إذا تغيّرت الهويّات والمواضيع الجنسيّة أو تنوّعت. تلك إذن طامّة كبرى لا قبل للمجتمع التّقليديّ بها. تلك صدمة تجعل كلّ الحدود مائعة حتّى ذهب أحدهم إلى أنّ مجرّد الدّعوة إلى المساواة بين الجنسين في القانون تجعل المرأة رجلا:

"نحب نقولك يا الفة يوسف انت ماكش مراة انت راجل. مفماش مساواة بين الراجل والمراة والا علاش ربي مخلقناش الكل رجال والا الكل نساء. المراة اللي تتصرف كيف الراجل مهيش مراة او تمشي تبدل الجنس متعاها احسنلها"

ولعلّ النّساء المهتمّات بالمجال الدّينيّ والمفكّرات فيه يمثّلن مجموعة مزعجة أشدّ الإزعاج، فهنّ يفتحن للأنثويّ بابا لخلخلة الإجماع الّذي جعل المقاربات الدّينيّة عبر تاريخ المسلمين ذكوريّة صرفا. إنّ الحفاظ على الأدوار الجندريّة يكون أيضا بحماية صرح التّراث الدّينيّ الّذي بناه الفحول من تطفّل ناقصات العقل والدّين.

2-1-2 الخوف من انتشار فكر "مختلف": الشّتيمة إقناع للآخر بأنّ المشتوم سلبيّ

إنّ الإغراق في الشّتيمة وعرضها على الشّبكات الاجتماعيّة ينشد، فيما ينشده، عرضَ عيوب المشتوم على الملإ. فكأنّ لسان حال الشّاتم يقول: "هل هذا هو الشّخص الّذي تهتمّون بأفكاره أو تتبنّونها؟"

إنّ مجال الخوف ليس الفكر "المختلف" في ذاته وإنّما الخوف يكون من تبنّي الآخرين لهذا الفكر أي إنّه خوف من انتشاره[75]. ولذلك تجد الشّاتمين يحقّرون من متابعي المشتوم بتأكيد أنّهم مجرّد ضحايا سذّج:

«La 7awla allah ya rabi elli kifmom hazine bnetna lilhawya»

[75] انظر صص75-76.

(لا حول الله يا ربّي، اللّي كيفكم هازّين بناتنا للهاوية)

وقد يوصف متابعو المشتوم بأنّهم جهلة وذوو نفوس ضعيفة:

"أكيد كلامك موجّه للجهّال"

"انسانة تهوى الظهور بقلب المفاهيم. لكن الحمد لله لا تؤثر إلا في النفوس الضعيفة والعقول الفارغة"

وقد يُعدّ متابعو المشتوم كفّارا:

"اللي يصدق كلامها يكون موش مؤمن"

ويبلغ الأمر إلى اعتبار أنّ من يشاهد فيديو للمشتوم هو "ابن حرام":

"كل من شاهد هذا الفيديو ابن حرام بلا استثناء"

فإذا كان هذا حال المتابع، فكيف هو حال من يتأثّر بالفكرة أو يتبنّاها؟

بعبارة أخرى، لكي تتجنّب نعتك بالجاهل أو الكافر أو ابن الحرام...، فالحلّ الوحيد هو تجنّب الاتّصال بأفكار المشتوم أصلا.

3-1-2 حماية الشّاتم من هشاشة نفسه: الشّتيمة تقنع الشّاتم أنّه على صواب

يقول أحدهم:

«Wkad matembah had maysadkek ye mas5a»

(وقد ما تنبح ما يصدّقك حدّ يا امّسخة)

إذا كان الشّاتم متأكّدا من أن لا أحد يصدّق المشتوم، فلماذا يستمرّ في الشّتيمة؟

تتواصل الشّتيمة لأنّها ليست فقط سعيا إلى حمل الآخر على عدم اتّباع أفكار المشتوم. ولكن الشّتيمة لها دور ألطف يتمثّل في إقناع الشّاتمِ نفسَه بصواب موقفه وصحّة رؤاه.

إنّنا نفترض أنّ الشّاتم ليس واثقا من مواقفه وآرائه وإلاّ لما احتاج للشتيمة بما هي وجه من وجوه العنفاللّفظي. ومعلوم أنّ كلّ عنف تجاه الآخر يكشف عن هشاشة نفسيّة لدى المعنِّف.

أولى محاولات إقناع الشّاتم نفسه بأنّه على صواب تكون بأن ينفي المشتومَ ضمن الأقلّية، أمّا صاحب التّعليق فمن الأغلبيّة، أليس أنّ "الأمّة" لا تجتمع على ضلال؟:

"ومن انت ... 99 بالمائة من الشعب التونسي يحتقرك"

وهذه الأمّة "التّونسيّة" لا تولي اهتماما للأقلّية الضّالّة جاهلة كانت أم كافرة ومريضة نفسيّا:

«ti inti jehla chkoun 7asbek min tounes»

(تي انت جاهلة شكون حاسبك من تونس)

«Psycopate 3andik 3o9da m dinne w el hamdoullah inou amthalik 9lelll fi tounis»

(مريضة نفسيّا، عندك عقدة من الدّين والحمد لله أنّه أمثالك قلال في تونس)

على أنّ إقناع الشّاتم نفسه بأنّه ينتمي إلى أغلبيّة صائبة لا تكفيه. فوجود المختلف يظلّ مزعجا وإن يكن نادرا. لذلك تتحوّل الشّتيمة أحيانا إلى مراوحة بين التّرغيب والتّرهيب كما أسلفنا. وكلّ من التّرغيب والتّرهيب ينشد تحويل الآخر المشتوم إلى نظير للأنا الشّاتم في محاولة من الشّاتم لطمأنة نفسه بغياب المختلف.

فإن لم ينجح هذا الأسلوب، فإنّنا نجد الشّاتم يتخيّل الآخر المارق مصابا بشتّى أنواع الآلام والعذاب. والأفضل أن تكون آلاما لا يمكن تلافيها لأنّها عقاب من الله تعالى. ولذلك تواتر تخيّل عذابات المشتوم بما بيّنّاه من إشارة إلى عذاب القبر أو الاحتراق بنار جهنّم[76] أو تصوّر ما هو أبشع:

«jhanim wichwaya fik»

(جهنّم وشويّة فيك)

المشكل الوحيد هنا هو أنّ الشّاتم يشعر أنّ العقاب المذكور هو مجرّد عقاب "متصوّر" أو "متخيّل" وليس حدثا فعليّا. ولإضفاء بعد واقعيّ على ما هو مجرّد خيال، نجد الشّاتمين يعمدون في مشهد العقاب الأخرويّ إلى تصوير انفعالاتهم متراوحة بين الشّماتة والشّفقة:

---

[76] انظر صص126-127.

"تسخفي مسكينة، نتخيلك وإنت تتشوشطي في النار، تفوه عليك يا ساقطة، حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا كافرة"

إنّ الإشفاق على المشتوم من العقاب الكبير الّذي ينتظره يعمّق من حقيقة المشهد، وكذا الشّماتة. كلّ من الانفعالين يثبتان بتحقّقهما في أعماق المشتوم تحقّق مشهد العقاب ذاته. ومن هنا قد يطمئنّ الشّاتم إلى أنّه اتّبع طريق الحقّ في مقابل المشتوم الّذي يغدو عقابه واقعا لا جدال فيه ولا نقاش ولا شكّ.

2-1-4 الشّتيمة هي تصدّ لغويّ لتحوّل واقعيّ

إنّ ما سبق كلّه يبيّن أنّ إحدى وظائف الشّتيمة الأساسيّة هي التصدّي للتّغيّر والمحافظةُ على الرّؤى الشّائعة. وقد أسلفنا أنّ اللّغة نظام رمزيّ منفصل عن الواقعيّ بصفته ما لا يمكن تمثيله. لذلك، ولرأب صدع هذا الانفصال الجوهريّ بين الرّمزيّ والواقعيّ، فإنّنا وجدنا الشّاتمين يكرّرون بعض حروف الكلمات ويكثّفون من النّعوت والصّفات السّلبيّة ويعدّدونها عسى كمّ الدّوالّ وكثرتها يؤثّران في الواقع[77]. ومن جهة أخرى، فإنّ الشّاتمين الّذين ينشدون حَمْلَ الآخر وحَمْلَ أنفسهم على الاقتناع برؤيتهم للعالم يبالغون في استعمال أفعل التّفضيل وفي اعتماد القسم. فرغم أنّ "كلّ حلاّف كذّاب" أو ربّما بسبب ذلك، فإنّ

---

[77]انظر ص112.

القسَم يُعتمد إثباتا قد يحمل الآخر على التّصديق وعلى المشاركة من ثمّ في المحافظة على الواقع الشّائع وفي التّصدّي للتّغيير الممكن[78].

ولعلّ التّعليق التّالي يثبت اعتماد اللّغة حاجزا إزاء الواقع المتحوّل. فقد كتبت "إحداهنّ" تحت فيديو حول المثليّة الجنسيّة:

"لا مهبولة إنت"

وتكرّر شبيه التّعليق هذا بعد أشهر من حساب آخر:

"لا هبلت مههع"

إنّ الأداة "لا" هنا هي صرخةُ نفي لواقع موجود لم يعد يمكن إنكاره وهو خروج الحديث في المثليّة من السّرّ إلى العلن. ال"لا" ليست موجّهة للفيديو ولا لصاحبته المجنونة، ولكنّها "لا" تنشد نفي ما هو كائن. إنّها محاولة القضاء على الواقع المزعج باللّغة ومحاولة لتغطية الحرج العميق بالضّحك، لكن هيهات...

2-2 الشّعور بالنّقص: الشّتيمة طمأنة للأنا وطلب حبّ من الآخر

2-2-1 الشّتيمة ظاهرها ارتفاع للشّاتم وباطنها شعور نقص تجاه المشتوم

---

[78]انظر صص117-118.

لفت انتباهنا تكرّرُ الشّتائم الّتي تنتقد المستوى العلميّ للمشتوم معتمدة خطابا مليئا أخطاء لغويّة.

"أنا أول مرة نعرفها وكيف شفة إلي الشي في الفايسبوك كرهتها على خطر ضهرتلي جاهلة" (كذا)

« on réponds les imbiciles par le silence » (sic)

«Ils disentque tu es un prof de faculte????????dapret quoi tecris ici…ta rien dans ta tete setout…tu parle de chose sans (provs)…frenchement»(sic)

هذه الأخطاء المتكرّرة تبيّن أنّ المستوى اللّغوي لجلّ الشّاتمين ضعيف.فإذا أضفنا إلى ذلك تكرار ذكر الشّهادات واستنكار الاعتراف الجامعيّ، وإذا ربطنا هذا كلّه بما أسلفناه من شيوع المقارنة في المخيال الجمعيّ، أمكن أن نذهب إلى وجود ضرب من الشّعور بالنّقص من الشّاتم تجاه المشتوم أكّدته عبارة "نكبتنا في نخبتنا" الّتي عرضنا لها سابقا[79]. ويؤكّده انتشار مصطلح "الحقرة" الّذي شاع في الإعلام والشّبكات الاجتماعيّة في مرحلة من الزّمن[80]. بل لعلّ التّصويب الإفراطيّ الّذي أشرنا إليه، هو

---

[79]انظر ص52.

[80]الحقرة (بثلاث نقاط على القاف) عبارة تفيد الاحتقار النّاتج عن تميّز جهويّ أو اقتصاديّ أو معرفيّ إلخ. وقد شاعت العبارة إثر أحداث جانفي 2011 إشارة إلى "ثورة الفقراء والمهمّشين" على الأغنياء والمعترف بهم اجتماعيّا.

في وجه من وجوهه سعي إلى تجنّب الخطإ الّذي قد يؤدّي إلى "الحقرة".

إنّ الشّاتم يضع نفسه ظاهريّا في مرتبة أفضل من المشتوم بما أنّه قادر على تقييمه، فكأنّ الشّاتم يضمر المعادلة التّالية: "أنا أقيّمك إذن أنا أفضل منك". ولكنّ هذا الارتفاع الظّاهريّ للشّاتم هو في واقع الأمر مجرّد إخفاء لشعور بالنّقص عميق من وجوهه ما أسلفناه من توهّم الغرور لدى المشتوم[81].

يقول أحدهم:

"إن ظننت انك قائدة زمانك هه[illegible]...فغدا سوف يلقى بك في مزبلة التاريخ"

هذا التّعليق نموذج دالّ لأنّه يفترض النّفاذ إلى ظنّ الشّاتم أنّه "قائد زمانه"، وهو في واقع الأمر ليس سوى ظنّ المشتوم الّذي يذكّره ب"نقص" عميق أساسه قيام المجتمع على المقارنة واعتبار من يُعترف به أفضل ممّن لا اعتراف به.

ويتأكّد ذلك في تحويل تهمة الغرور إلى شبه اتّفاق جمعيّ يذكّر مرّة أخرى بأنّ الجماعة لا تخطئ:

"علاش أستاذة جامعية ومكش متربية، ما تردش التّحيّة، أنا غالط نصبّح عليك، ما كذبش اللي قال عليك دعوة فارغة"

---

[81]انظر صص59-60.

واللّطيف أنّ الشّاتمين لا يستبقون الغرور لدى المشتوم فقط، وإنّما يستبقون "نقصا" مفترضا ينشئ الغيرة:

"والله جبت العار لتونس وإلي يقولو أحنا نكرهوك خاتر نغيرو منّك فأنا نقوللهم الحمد لله ما جيناش كيفك"

ولئن كشفت الشّتيمة هنا عن شعور بالنّقص في المجتمع ناتج عن المقارنة واعتبار بعض "المهن" أفضل من أخرى، فهي أيضا كاشفة على أنّ التّعليم والمعرفة ما زالتا، رغم كلّ شيء، تحملان في تونس رأس مال رمزيّا يحظى ببعض قيمة اجتماعيّة.

إنّ وظيفة الشّتيمة في هذا المستوى هي طمأنة الشّاتم وحمايته من نظرة الآخر الّتي هي في واقع الأمر نظرته لنفسه حاملة بصمات الجماعة المقارِنة المقيّمة الخاصية.

2-2-2 الشّتيمة ظاهرها كُره وباطنها طلب حبّ

تعبّر الشّتيمة عن جماع مشاعر سلبيّة تجاه المشتوم أشرنا إلى بعضها تحقيرا واستهجانا وسخرية. وليست الشّتيمة تعبيرا لغويّا "عقلانيّا" شأن نقد الفكر أو بيان تهافته، وإنّما الشّتيمة تعبير انفعاليّ. وهي تعبير انفعاليّ يعبّر عن ذات الشّاتم لا عن صورة المشتوم. فالشّاتم هو الّذي يتأثّر انفعاليّا وعاطفيّا بسبب وجود المشتوم.

قد يكون هذا التّأثّر نكدا:

"نكدت علي النّهار"

أو شفقة:

«7alik yssa5ef»

(حالك يسخّف)

وقد يحقّق المشتوم للشّاتم بعض متعة أحيانا:

"على كل سأواصل تتبع سفسطتك فهي تثير في بعض الشعور الّذي أحب ان يرافقني عند النظر والاستماع الى الظالمين"

على أنّ أكثر المشاعر الانفعاليّة تواترا هو الكره.وقد يُسند هذا الكره إلى التّونسيّين:

"راجع روحك...النّاس يكرهوك..."

"ما سئلتش روحك ولو مرة لمذا انت مكروهة من كلّ التوانسة" (هكذا)

وقد يكون الكره فرديّا:

«na3il bouk nakerhik ya kahba ya olfa»

(يلعن بوك نكرهك يا قحبة يا ألفة)

لقد أسلفنا الإشارة إلى المفارقة بين مضمون الشّتيمة الّذي يحقّر المشتوم ووجود الشّتيمة الّذي يرفع المشتوم بإضفاء الاهتمام عليه. ولعلّ التّعبير عن كره الآخر يؤكّد هذه المفارقة ذلك أنّ شعور الكره على سلبيّته الظّاهرة هو من أقصى ضروب

الاهتمام الانفعاليّ بالآخر. إنّ عبارة "أنا أكرهك" طريقة "مشوهة؟ " لقول "أنا أحبّك".

وإنّنا نزعم أنّ الشّتيمة هي في عمقها الوظيفيّ طلبٌ للحبّ. ولا أدلّ على ذلك من تحوّل عبارات الكره إلى عبارات احترام ما أن يتحقّق تواصلٌ بين الشّاتم والمشتوم يفنّد صفة الغرور المتوهّمة، ويؤكّد قبول صاحب "المرتبة الرّفيعة" لصاحب "المرتبة الدّنيا" (في وهم الشّاتم طبعا). ومثال ذلك هذا "الحوار" الّذي دار بيني وبين أحد الشّاتمين:

"–التركتورة تخمم فقط لا غير سوى الجنس ياخي تركتورة جنس؟

– هذا الكتاب ليس حول الجنس.

–احترامات لك يا سادة الذكتورة فأنا شخص لا أؤمن بالهوية الجنسية لعديد الأسباب منها أن الأوضاع الجنسية عديدة ولامحدودة وزد على ذلك هي إختراع وصناعة وإبتكار. شكرا لك لإحترامك لي بردك عليا برغم الفرق العلمي بيني وبينك" (هكذا)

بل يبلغ الأمر في بعض الأحيان حدّ تقديم الشّاتم اعتذاره، وذلك بعد التّأكّد من غياب "غرور المشتوم" وقبوله للحوار الّذي يضمر اعترافا بالآخر:

"–البلاد داخلة في حيط منكم يا المتحررين...ستّيبوا النّاس انتم هوما السّراقة وإلي تسوقو للارهاب بافعالكم.

-مرحبا بك حضرتك حرة في قراءتك للأحداث، وأنا كذلك، دون شتم وسبّ"

بعد أيّام تلقّيت الرسالة التّالية:

-"المرة الي فاتت حكيت معاك بطريقة خايبة، موش متعودة نحكي مع الناس هكذا، كان معندكش مانع نكونوا أصدقاء".

إنّ خصائص الشّخصيّة التّونسيّة الثّلاث الّتي كشفت عنها شتائم الفايسبوك متّسقة بعضها مع بعض. فقيامُ الشّخصيّة التّونسيّة على تغليب الجماعيّ على الفرديّ يتجسّم من خلال تغليب الذّكوريّ على الأنثويّ، وعلاقةُ المقارنة وما يستتبعها من صراع يجعل جماعة أفضل من جماعة وفق ما يحدّده المخيال العامّ. فمثلما أنّ الرّجالَ أفضلُ من النّساء، فالغيريّون أفضل من المثليّين "الموبّنة"، والمسلمون خير من "الكفّار"، والعامّة أفضل من "النّخبة" أو أشباه النخبة ...والعلاقةُ بين هذين الصّنفين المتقابلين صراع يقصي بموجبه المنتصرُ المنهزمَ الّذي يجب أن يصمت بما في دلالة إسكات الآخر من إقصاء خياليّ ورمزيّ.إنّ قبول وجود الآخر المختلف من أعسر ما يمكن أن تطلبه من التّونسيّين.

هذا ظاهر الأمور أمّا باطنها، فصورة مجتمع محافظ ينتشر بين ظهرانيه خوف من تغيّر الأوضاع وتبدّلها بما تسارع به الحياة

والتّواصل الالكتروني الحديث المفتوح. باطن الأمور خوفٌ من تغيّرات جوهريّة تطال العلاقات الاجتماعيّة والموازنات الجندريّة والقوالب التّمييزيّة. باطن الأمور قلقٌ عميق من الانتماء إلى مجموعة "المحتقَر" أو "المستهجَن".

هذه الخصائص، ظاهرُها وباطنُها، ممّا يشيع في المجتمع التّونسيّ ويمكن إفراد مؤلّف لتفسيرها عبر التّاريخ[82]، ولكنّنا ننشد تسليط الضّوء على مرحلة سياقيّة مخصوصة، فقد اكتفينا بتحليل الشّتائم الواردة على النّات بين 2011 و2017. وإنّنا نزعم أنّ سمات الشّخصيّة الجماعيّة الّتي أشرنا إلى بعضها متّصلة أيّما اتّصال بالمرحلة التّاريخيّة المدروسة. ذلك أنّ التّحوّل السّياسيّ والاجتماعيّ المهول الّذي طرأ على تونس سنة 2011 جعل المجتمع يفقد كلّ "الثّوابت" الوهميّة الّتي كان مستندا إليها سياسيا واجتماعيّا وإعلاميّا... وقد جعل التّغيير المفاجئ البعض يتمسّك بالجماعيّ والشّائع والمتعارف عليه بما هي أسس يمكن أن يستند إليها في مرحلة تخلخلت فيها كلّ الأسس. فلم يكن من اليسير على المجتمع الّذي عاش عقودا في ظلّ صمت وتعبير مراقب أن يقبل فجأة ظهور المثليّين

[82] من أطرف الكتب الّتي عرضت للشّخصيّة التّونسيّة عبر التّاريخ كتاب: الهادي التّيمومي: كيف صار التّونسيّون تونسيّين؟، تونس، دار محمّد علي الحامّي 2014.

والمتنقّبات والسّلفيّين...ومن جهة أخرى، فإنّه لم يكن من اليسير أن يتموقع التّونسيّ خارج الثّنائيّات الّتي قُدّمت له آنذاك، نعني ثنائيّات الحداثيّون/التّقليديّون، الشّيوخ/الشّباب، الثّوريّون/الأزلام، المسلمون/اللاّدينيّون، الإسلاميّون/العلمانيّون إلخ...

ولم يكن من المتاح أن يرى عموم التونسيّين هذه الثّنائيّات إلاّ في ظلّ صراع مانوي مسطّح. فكأنّ الانتماء إلى مجموعة من توهّموهم "منتصرين" آنذاك كانت كفيلة بتوفير الحماية اللازمة والاطمئنان المريح في واقع غير واضحةٍ معالمُه ولا مرسومةٍ آفاقُه.

وبانتماء الشّاتمين إلى مجموعة الأغلبيّة "المنتصرة" الّتي هي على صواب، وباستنادهم إلى التّمثّل الثّنائيّ المسطّح للكون، توهّموا أنّ "المنهزمين" سيختفون أو سيصمتون في أسوء الأحوال، والصّمت هو أساسا اختفاء من المجال العامّ الّذي كان للشّبكات الاجتماعيّة، ولا سيّما الفايسبوك، دور كبير في تمثيله. على أنّ الواقع كان مختلفا عن استيهامات الشّاتمين. فالآخر باق رغم كلّ شيء يتكلّم ويعبّر ويحيا. اكتشف جمهور الشّاتمين عجزهم عن إلغاء الآخر مطلقا.

ولم يكن هذا أخطر "الاكتشافات"، الاكتشاف الأخطر هو أنّ للآخر المشتوم اعترافا مّا، وهو اعتراف أساسه سطوة رأس المال الرّمزيّ على النّفوس. فليست الشّهادات هامّة في ذاتها وإنّما في تصنيفها وتقييمها، وليس للكتابة دون أخطاء قيمة أنطولوجيّة وإنّما لها قيمة تراتبيّة في المخيال الجمعيّ. ومهما يدّع الشّاتم تكسير هذا المخيال التّراتبيّ، فهو لا يزيده إلاّ ترسيخا لأنّه جزء منه.

إنّ الشّتيمة تقوم في جوهرها على مفارقات بالمعنى المنطقيّ للكلمة المفيد تناقضا. وهي تحقّق للشّاتم وظائف نفسيّة مخصوصة. وجماع المفارقات والوظائف ثلاث:

-فالشّتيمة مفارقة بين كونها سعيا من الشّاتمين لإثبات خطإ الآخر من ناحية وتعبيرا عن الخوف من أن يكون "الأنا" هو الخاطئ من ناحية أخرى. وهي تقوم في هذا المستوى بوظيفة طمأنة الأنا الخائف.

- والشّتيمة مفارقة بين تعبير الشّاتم عن احتقار الآخر واستهجانه من جهة والاهتمام بهذا الآخر نفسه من خلال الشّتيمة. وهي تقوم في هذا المستوى بإخفاء شعور الشّاتم بالنّقص، وقد أسلفنا الإشارة إلى مصطلح "الحقرة".

-والشّتيمة مفارقة بين إظهار الكره من جهة وسعي إلى التّواصل مع المشتوم من جهة أخرى. وهي تقوم في هذا المستوى بطلب الاهتمام والحبّ.

الشّتيمة وبعد؟

لماذا حمل العنوان الفرعيّ لهذا الكتاب: "قراءة ذاتيّة (جدّا) للشّتائم الافتراضيّة؟

بكلّ بساطة لأنّي كنت واعية أنّ البعض قد يرى أنّ الاقتصار على الشّتائم الّتي اتّجهت إلى شخصي المتواضع لا يكفي لتقديم رؤية عامّة للشّاتمين أو لخصائص الشّخصيّة التّونسيّة في مرحلة مّا. وإنّي أؤكّد للقارئ أنّي لم أتّخذ الشّتائم المتّجهة إليّ نموذجا إلاّ بعد أن تبيّنتُ وجه الشّبه بينها وبين سائر ضروب الشّتيمة الّتي كانت شائعة على النّات والّتي كان "ضحيّتها" مناهضو الإيديولوجيا الإسلاميّة.

على أنّ اللّطيف هو ما لاحظناه من أنّ شاتمي الإسلاميّين هم أيضا يعتمدون شتائم تحيل على نفس خصائص الشّخصيّة التّونسيّة الّتي ذكرنا.بعبارة أخرى، لا فرق بين شتم "الإسلاميّين للعلمانيّين" أو شتم "العلمانيّين للإسلاميّين" من حيث المضمون والأساليب والدّلالات.

فمن ذلك أنّ منطق الفريق والجماعة الّذي أسلفنا حضر بقوّة من خلال جمع "الحداثيّين" لصور مناهضي النّهضة، ومن خلال التّهجّم على الآخر المختلف وفق مبدإ التّعميم ذاته:

"التوانسة اشرف من اشراف بول البعير حب من حب وكره من كره"

وقد جسّم "الحداثيّون" أيضا النّظرة الجندريّة الدّونيّة، وذلك من خلال وصف النّساء بالذّات بأنّهنّ *"حارزات"* النّهضة أو بأنّهنّ من*"الجواري"*. وتجسّمت النّظرة الدّونيّة للنّساء أيضا في التّوازي بين انتقاد الإسلاميّين ل"عهر" الحداثيّات ومعايرة الحداثيّين الإسلاميّن ب"جهاد النّكاح". في الحالتين كان جسد المرأة هو مجال الصّراع الذّكوريّ وكان تمثّل الشّرف جنسيّا.

وكثيرة هي تعاليق "الحداثيّين" الّتي تتّهم "الإخوان" وأتباعهم بأنّهم مثليّون وتعتبر ذلك مجال سبّة وعار. ولا أدلّ عن ذلك من حملة اتّهام أحد النّهضويّين بأنّه مثليّ انطلاقا من فيديو له صوّر خلسة وهو في السّجن.

"يا كريوكة...لعن الله الطرشقانات الأحياء منهم والأموات"

أمّا منطق الصّراع والمقارنة، فتجسّم لدى "الحداثيّين" من منظور التّفوّق، وهو الوجه الآخر للشّعور بالنّقص. فمن ذلك قولُ أحد المدوّنين "العلمانيّين":

"مساكن يحبو يسكتوني...أنا كيف نبدأ راقد نتكلم...خلي فايق"

أو

"***اللي غايضني أن المنصف المرزوقي كي يجي يرقد يقول أنا كنت رئيس على فلان الفلاني***(يعني نفسه)"

ومن ذلك انتقادهم للآخر وفق مخيال جماعيّ "يحتقر" بعض المهن:

"***ما هو إلّا مزاودي***"

ولم تخل شتائم "الحداثيّين" من استعمال نفس الألفاظ الجنسيّة العنيفة ضدّ المتديّنين:

«Irouhou ineykou houma wedyanithom»

(يروحو ينيّكو هوما وديانتهم)

ولا من استعمال الحيوان في مجال الشّتم:

"***خاطر البهايم اللي عندنا مخلوقين للتصفيق والتمجيد والقفة كهو***"

ولا من تكرار الحروف للتّأكيد:

«Bravoooooooooooooooooooooooooooooooooooo»

ولا من تمثّل نفس نظريّات المؤامرة:

"***يا كلب تشبّ في نفسك بالفاتحين الأوائل؟؟؟ يا عميل بريطانيا وإسرائيل***"

ولا حتّى من طلب الموت للآخر:

"***موتكم أهون من حياتكم***" أو "***موتوا انقرضوا***"

وقد نجد أحيانا المصطلح الواحد ينسبه كلّ فريق إلى نفسه، فالحداثيّون يسمون متابعيهم بالأحرار والحرائر، وكذا الإسلاميّون. بل إنّ بعض الأمثال والأبيات الشّعريّة المعتمدة في الجدل تواترت لدى هؤلاء وأولئك. ومن ذلك المثل: *"الكلاب تنبح والقافلة تسير"*، وبيت المتنبّي الشّهير:

"وإذا أتتك مذمّتي من ناقص فهي الشّهادة لي بأنّي كامل"

طبعا مرجع الكلاب والقافلة ومرجع النّاقص الذّامّ والكامل المذموم تتحوّل بتحوّل المتكلّم، والفريق الّذي يتصوّر الانتماء إليه.

لن نكرّر ما قلناه في الكتاب. لكن أردنا فقط افتراض أمرين: أوّلهما أنّ الشّتيمة صورة عن مخيال شعب، وليست صورة عن مخيال فئة دون أخرى. فلا فرق، في مضمون الشّتيمة وأسلوبها، بين إسلاميّين أو حداثيّين ولامتديّنين أولادينيّين. وهذا منطقيّ لأنّ الشّتيمة تكون باللّغة، واللّغة تهيكل الشّخصيّة الفرديّة والجماعيّة. والشّخصيّة التّونسيّة علّتها الجوهريّة هي "الأنا" بمختلف وجوهها وتلويناتها وتصريفها. وهي "أنا" مرضيّة في حاجة إلى عرفان مستمرّ وإثبات دائم وفي حاجة إلى صراع مع الآخر حتّى تهدأ وتطمئنّ أو تتوهّم أنّها هدأت واطمأنّت.

الأمر الثّاني هو أنّ أسوء ضروب التعامل مع الشّتيمة هو الشّتيمة المضادّة. فبما أنّ الشّتيمة تعبير عن قلق ذاتيّ، فإنّه فمن أشدّ أنواع السّلوك بلاهة أن تجيب طالب الطّمأنينة بتعميق شعور القلق لديه، ومن أشدّ أنواع السّلوك سذاجة أن تجيب طالب الحبّ بصدّ وكره يذكيان لديه التّوتّر. فكأنّك تريد إطفاء النّار بإذكاء جذوتها، في حين أنّ النّار تنطفئ تلقائيّا إذا لم تجد ما "تأكله".

إنّ المجتمع التّونسيّ في حاجة إلى طوفان من الحبّ عسى تهدأُ النّفوس المتوثّبة نحو صراع خارجيّ وهميّ. وربّما آن الأوان لنعيد النّظر في أساليب التّربية في الأسرة وفي مناهج التّعليم وفي نوع الإعلام حتّى نبني علاقات صحّية تبدأ بحبّ المرء نفسه، ووعيه أنّ لكلّ دورا في الحياة، وأن لا دور أفضل من دور. فمَن لا يحبّ نفسه لا يمكن أن يحبّ الآخرين، ومجتمعٌ قائم على الصّراع والكره لا يمكن أن يكون متوازنا، ولا يمكن أن يرنو نحو التّقدّم والنّموّ والسّلام.

الفهرس